قصص

اللحظة الفاصلة

كرم صابر

اللحظة الفاصلة

مجموعة قصصية

كرم صابر

قصص : اللحظة الفاصلة
المؤلف : كرم صابر

الطبعة الأولى : ٢٠١١
رقم الإيداع : ٢٠١١/٢٦٢٩
الترقيم الدولي : ٧-٧٦-٦٢٤٣-٩٧٧-٩٧٨

وعد للنشر والتوزيع
٣ محمد حلمي إبراهيم – متفرع من شارع شامبليون
وسط البلد – القاهرة .
تليفون : ٠٢ ٢٥٧٤٥٨٧١ – فاكس : ٠٢٢٥٧٤٥٨٧٣
٠١٠٩٧٦٩٧٤٩ – ٠١٢٥٢٨١٣٨١
www.darwaad.com
darwaad@hotmial.com
dar.waad@yahoo.com

الإشراف العام : **الجميلي أحمد**

الإخراج الفني : هبة يحيى

كرم صابر: أديب مصرى نشأ فى مدينة الوراق وقت أن كانت قرية يعمل أهلها بالزراعة قبل أن يدمجها الزحف العمرانى بالقاهرة ، وبدأ العمل بالمحاماة عام ١٩٨٩ ؛ نشر العديد من الأعمال السردية منها المتهم وأين الله ورائحة الأنوثة وعشق الحياة وفؤاد المدينة وطائر النسيان ومريم العذراء وكلاب السكك.

طبعة إليكترونية : ٢٠١٥

"للروحِ البريئةِ التي تحملتْ
القسوة وحُرمتْ من الرضا"

"الحرمان"

حين خرجنا من المستشفى، وقبل أن نرفع والدنا بالخشبة لندفنه بمدافن "السيدة عائشة"، قال: "هل تعرف تركة "أبوك؟" قلت: "لا"، قال: "لم يترك سوى الكُرْهِ، لابد أن تأخذ نصيبك منه"، قلت: "انفصلنا منذ عشرين عاماً وليس لى نصيب فى هذه التركة التى زرعَتها وحصدتها وحدك"، قال: "يجب أن تأخذ حقك".

ألقى بنصيبى فى وجهى، فاض قلبى بالحمولة، ألقيته بالشارع، استدعوا عربات المحافظة لتنظف الشارع من وساختنا وترفع الأنقاض.

هل كانوا بشراً وهم يحملون كل هذا القدر من الحقد بقلوبهم؟

استعدوا الموج البطئ ليقلع المنازل والعقول ويضع بدلاً منهم ماضيا لن يذكره أحد أبداً بعد هذا التاريخ إنه كان أجمل الذكريات؟

هل كانوا بشراً حين وضعوا السم بالعصير ليرثونى، صرخت أمى: "لا تشربه"، هل نصيبى يستحق هذا الصراع رغم أنى تنازلت عنه؟!

جربَ أن يقتلني آلاف المرات ، ألقى بمياه النار على وجهى ، شوه أنفى ، قذف بكل الدم الفاسد الذى خرج من مجارى المستشفى بعد وفاة والدنا بشريانى ليملأنى بالغضب دون أن يهتم ولو لمرة واحدة بالورود التى ترعرعت بقلب والدنا.

لم أكن أتصور أن الأب النسمة الطيبة والذى كان متزوجاً من اثنتين ولم ينجب إلا ولداً واحداً من كل امرأة يمكن أن تشوه جثته ميتاً، جاء أخى بمنشاره، أنزل الخشبة التى بها أبى الميت، صرخ فى الجمع ليصمتوا، قلت له: "ماذا ستفعل؟" قال: "سأقسمه نصفين ونقتسم تركته قبل دفنه".

قلت له:"كيف ستفعل ذلك بأبينا"، قال: "لأنه أبونا الشِرك، سأشقه نصفين، ليأخذ كلانا نصيبه".

أخرج منشاره وصرخ فى الجمع: "اتركوا الخشبة"، رفع القماش الأبيض من عليه، أنزل منشاره على بطنه، قلت: "لا تفعل ذلك، خذ كل ما تريد ولا تشوه جثته"، قال: "لقد شوهنى أنا وأمى، وحرمنى النعمة التى كنت تستمع بها".

تجمع الناس وقالوا له: "سنعطيك نصف التركة التى كتبها باسم أخيك واترك الجثة لندفنها"، أنزل منشاره على جسم الميت وقال: "من يعوضنى أربعين عاماً من الحرمان؟"

قال الناس: "عَوَضك على الله واتركه لحال سبيله".

حاولتُ أن آخذه فى حضنى، كان قلبه مملوءاً عن آخره بالغل فرفض.

صرخت فيه ليتذكر الليلة التى نادى أبى عليه وهو يجرى بالشارع، طلب من أمى تحمميه وجلس وسطنا قالا: "لا ذنب لكم، ارتكبتُ الخطيئة حين تزوجتُ باثنتين".

كان يقشر التفاح ويعطيه لأخى، أخذه فى حضنه وبكى وقال: "يا أحمد أنت الكبير، خليك حنين على "أخوك"، أنا لم أرتكب جريمة بزواجى، أخوك لا ذنب له، لا تنظر إليه بحقد".

نزع من قلبه الغل وألقاه بعيداً ونِمنا ثلاثتنا على حصيرة وحيدة، أفطرنا معاً فى الصباح وأَخَذَنا فى حضنه وبكى ثم ذهب لعمله.

حاولت أن أذكِّرَه ببراءة قلب أبينا، لكنه قد عزم على شطر جثمانه الميت لنصفين، اندهشت من ضحكته الطيبة وهو ميت، كان مبتهجاً، وقَّعتُ له على بياض ليأخذ ما يكفيه من التركة ويتركه لحال سبيله ، رفع منشاره من على بطنه المجروحة، ضغط بقدمه على فمه المفتوح وقال: "غور فى داهية".

"الحياة"

أفهوني أن دورى هو تكسر الجدران وشق المياه، والعبور للجانب الآخر المملوء بالحب، بادرتُ بتحقيق أحلامهم، لكنهم اعاقو طريقى وشتمو فى هزائمى وضعو الأحجار والأشواك وسط الشوارع، واشرو بتحدٍ لأمر بقسوة من قلوبهم، كيف حمَّلونى أمانة توصيلهم سالمين، وتركونى اغرق بعرض البحر؟!

كنت أمر وسط الموج رغم الجراح والصعاب والفقدِ، وأذهلتنى المدن التى تنادى بالحب.

كنت أواصل السباحة للوصول للجانب الآخر لأعيد لهم الحياة، بعد هجران زوجتى وأصدقائى وحبيبتى، لكن عدت في النهاية وحيداً.

خرجت وحدي أعيد ترتيب العالم، ووصلت لمداخل البلدة التى لا يزال فلاحوها يزرعون الأرض رغم الخلافات المتوارثة حول الحدود والقلب والفواصل والمياه.

كان منظرهم يبهج العين، الجميع مشغولون بالحصاد وجمع القمح والبرسيم من الأراضى، أقف متأملاً مشهد قرية مقسومة على نفسها، ومحرومة من الحب رغم البراح الواسع.

تذكرت أمانتهم التى حملونى إياها، قالوا: غادِرْن وسوف تعود محملاً بالنصر"، واجهت الموج العاتى وحين اعتقدت أننى انتصرت، عدت بالسر لإبلاغهم ، لكنهم تجاهلونى، وكأننى ضيعت عمرى لنجاة قوم آخرين، تأكدت من غفوتى حين قال طفلهم: "أنت غريب لماذا عدت؟"

فجأة شاهدته يطير فوقى ويبحلق فىَّ عيني، ويتوعدنى بالقتل، وقام الفلاحين برفع الفؤوس والشوم وتوجهو ناحية طابق المياه ليكسروه.

الجميع جرى رافعاً أسلحته، والشرر يتطاير من أعينهم، وقعتْ العركة التى لم يُعرف إحصاءٌ حقيقي لعدد القتلى والمصابين وحجم الدم الذى نزف من رؤوسهم وقلوبهم.

انطلق الشر وهم يضربون الشوم فوق رؤوسهم ويصرخون، أحاطهم طائر الدم من الأرض والسماء، رفعوا رؤوسهم مرة واحدة ناحيته، ففوجئوا بسحابات من الغل تتجمع ،وتتسحبت لنن عيونهم واروحهم، خلبتهم جميعاً، فساروا وراءها مجروحين.

لم يلتفت أحد ناحية الآخر، وجدوا أنفسهم بالصحراء والأرض بارت حولهم.

وقفوا صامتين، جاهلين الطريق الذى جاءوا منه، فقدوا النظر، ضاعت ملامح بلدتهم الطيبة، حاولوا رفع أيديهم لتطول الطائر، كان يرتفع كلما بحلقوا فيه، ناديت عليهم من بعيد ليعودوا مرة أخرى لبيوتهم، كان شعاع الطائر أقوى من صوتى.

نزل الرعد والمطر، كانت ملابسهم الممزقة وعصيهم المكسورة أمامهم، رفعوها للسماء لتعيدهم مرة أخرى، لكن طائر الدم ببراعة الحاوى قذفهم بشعاعه فأفقدهم التوازن.

وجدت نفسى وسط الجمع أصرخ: "لا يهم أن نتوه، فنحن معاً، يمكننا أن نبدأ من جديد"، استغربونى وقالوا: "من أنت؟".

كانو يبحلقون فى السماء ويشتموني ويصرخون: "ليس هناك شئ يجمعنا ، اخرج من وسطنا، اتركنا ليس هناك شئ يجمعنا".

"العصفورة"

أعود من الماضى متسلقاً الجدران، أنظر للشوارع والحوارى متسائلاً: "هل كنت هنا؟" كانت الغربان تملأ الحوارى، والبوم ينعق، والناس يتلفتون يميناً وشمالاً يبحثون عنى، لكن أعينهم لم ترنى.

تنطلق العصافير وتنتشر فوق البيوت العالية، حلقت معها فوق السماء لأذكرها بتغريدنا، لكن العصافير قاسية القلب تجاهلتنى، وألقت ببرازها على رأسى، ضحك الناس وقالوا: "خير اللهم اجعله خير، براز العصافير معناها كسوة الفقير".

أنظر لملابسى الممزقة واضحك لتتبرز العصافير مرة أخرى.

يخرج الناس جماعات من الحوارى وينتشرون حول الباصات بمحطة البلدة، أراقبهم خلف الميدان خائفاً من عيونهم، ينادينى قلبى لأعود، لكن هناك شيئاً بينهم يرفضنى شيء يقول: "يجب أن تختفى من حياتنا حتى يظل غناء العصافير مرتفعاً"، فلملمت ملابسى ووضعتها بكيس المشاعر لأرحل دون رجعة.

الماضى الذى قذفنى على الأسفلت يتوعدنى ويقول: "ليس لك مكان"، نظرت يميناً وشمالاً، لم يكن إلا أسراب البوم التى تنعق، أغلقت أذنى وصرخت: "لماذا ترفضونى؟ أعطيتكم كل الماضى وطردتمونى".

انبهر الناس على المحطات حين سمعوني أعايرهم، بكى بعضهم على الدنيا التى لا تدوم، قالوا كلاماً كثيراً عن الفراق، لكنهم استغربوا طلبى بالعودة، لكن العصفورة التى كانت تقف بين الأغصان قالت: "لا يهم سوف أغنى لا يهمنى وجودك أو اختفاؤك" وبدأ صوتها يرتفع، لتنبهر الناس من قوة امرأة تعرف أن احتياج المشاعر والحب منتهى القوة".

"جرح القلب"

اتركه يعيش بيننا ليجعل حياتنا الرتيبة جحيماً، ويفقأ أعيننا لنتوه على النواصى.. كيف استوطن المرض داخلنا؟ عاش سنيناً يأكل فى لحومنا وينتشر فى خلايانا ؟

استأصل بعض الأعضاء، ترك الباقى مصاباً يواجه منفردا توحشهم، استطاع أن يمتطى ظهورنا ويترك قلوبنا للنار، وينطلق بعيداً، حتى أصبحت رؤيتنا أو السؤال عنا هو آخر أمل يمكن أن يصبو إليه أهلونا.

استعرضوا كل المشاهد الكئيبة التى جعلت الفراق مبتغى كل واحد فيهم.

ناموا هناك أياماً وشهوراً، وحكوا الحكايات المخزية حول العظْمة والكلب والطمع، ولم يتصورو أن أكواب البلاستيك يمكنها اشعال الحريق.

كان حلمنا أن نعمل بشكل جماعى، لكنه قام بزرع الغل والحقد الذى ترعرع بين قلوبنا، أصبح يملأ هواء البيت، حتى إذا رأى أحدنا الآخر، تحول لمتوحش، تتحجر ملامحه مرة أخرة، لدرجة أنك إذا تفوهت بكلمة اعتقد أن الموت يناديه، فيرد وتقوم العركة، على شئ لم يذكره، لكنه تخيل أن حياته ستضيع إذا لم يرد الغل بغل أعتى.

الأطفال والنساء تولول كل يوم ولا ندرى كيف يمكن أن نوقف هذا العويل، شئ واحد امن به الجيران "لا أمل فى العيش معاً".

لم يترك لعينى أن ترى غير غله، كنت أتخيل أمى وهى تلبس أجمل ما عندها، وتتعطر لأبى، فيضربنى ويقول: "لماذا تتصنت؟" فأقول: "استمتع بسعادتهما"، فيُخرِج المقصَ المشتعل ويلسعني في أذني حتى يحرمني السمع.

كان قلبى يختنق، جرحنى بكل أعضائى، شوه وجهى بماء النار، كان همى اتقاء شره، وتطهير المنزل من دمه الملوث.

يخرج مشرطة كل يوم بعناية فائقة، ينتظر غفوتى، فيجرح العضو الحساس، ثم يدخل مشرطه بجيبه، يؤلمنى الجرح والمؤذى يقول: "ماذا بك؟" فأقول: "الدم ينزف منى، ابلل دمى بيدى، وألطخ

الحائط ليظهر للمارة"، فيقول: "ليس هناك دم أنت تتخيل الأذى".. أضع على الجرح فوطة كبيرة، أنتظر أن يمشى بعيداً حتى لا يطولنى شره، فيفتح مشرطه من جديد، ويشج احساس قلبى، أصرخ: الحقونى"، فيقول للناس فى هدوء: "مريض ويشيل عنه ربنا".

أسألهم: كيف تركنا أحلامنا وقلوبنا للجراح؟"

يردوا: "لا تلمسوا أبداً البراعم الحساسة فى روحكم".

كان أبو عيشة الذى علَّمنا النظام والعمل فى حياتنا يعرف كل شئ، قال لى: "لا تحزن، سوف يأتى يوم وترتاح"، أقول: "يا عم أبو عيشة حُوش عنى"، فيقول: "ربنا يكفيك شره"، أقول: "هل هذا ما قدرك الله عليه؟" يضحك ويقول: "يا ولدى إذا أصابك المرض تستطيع أن تتحمل وتغلق على نفسك حجرتك وتنام ولا يسمع ألمك أو يفهمه إلا أنت، ومع قدر من التحمل تستطيع أن تشفى منه أو تتعود عليه، وإذا كنت فقيرًا وجائعًا، فيمكنك أن تشترى بجنيه فول وعيش وتأكل أنت وأولادك وتنام، أم إذا ابتليت، فلا أحد يستطيع أن يمنع عنك الأذى، الدعاء بحمايتك من شر البلاوى، هو أهم شئ فى الدنيا، المجرم الذى تعاشره مصيبة كبيرة، فليرحمك الله".

غادر أبو عيشة ولم يعد ، حماه الله مشرط المؤذى، قال وعيونه تدخل فى روحى: "ماذا كان يقول؟" قلت والدم يملأ أرضية الحجرة: "كان يوصينى بالنظام والعمل"، ضحك وقال: "أوعى تسمع كلامه"، قلت له: هل يعقل أن أسمع كلام أحد غيرك، لكن أرجوك لا تقطع أعضائى مرة أخرى"، قال: "لا يمكن، إن رأيتك بأى حارة أو حقل، سأشج قلبك، اغرب عن وجهى حتى لا أراك"، وضعت يدى بقلبى المصاب، وتركت له كل شئ.. وهربت بجراحى.

"القطة"

خلف باب الشقة جلست انتظر القطة التى حلمت بها لتدخل كي أقطع رقبتها، كانت عيناها الشريرتان متقدتين وتقذفان الشر بقلبى دون رحمة، أفزعتنى من نومى، سحبتُ سكين المطبخ ونمت خلف الباب لأمنع دخولها، بعد أذان الفجر سمعت وقع أقدامها البطيئة على السلم، نظرت من العين السحرية وجدتها تبحلق بعينى وتتوعدنى بالقتل.

تحسست السكين بيدى، ودخلت حجرة الأولاد وجدتهم يغرقون فى النوم، أحكمت غلق كل الأبواب والشبابيك، واقتربت من باب الشقة، فسمعت أصواتاً غريبة، نظرت من العين السحرية مرة أخرى فوجدتها مجتمعة مع الكلب والفأر والعِرسة يخططون لأكل أولادى.

قررت إلا أفتح الباب، وكان الخوف قد بدأ يتسرب لقلبي ويدى ترتعش.

وضعتُ خشب المطبخ خلف الباب، ودققت المسامير بالشبابيك بحديدة الهون، فزع الأولاد وزوجتى من دق المسامير ورمقونى بدهشة وعيونهم الناعسة كلها تساؤلات.

قلت: "إن القطة الشريرة وعصابتها ينوون التهامكم"، أخذتنى زوجتى من يدى وقالت: "لقد طردناها لا تخف"، وأمسك ابنى الحديدة والسكين والمسامير وأخذنى بحضنه وقال: "لا تخف علينا نحن سنلتهم القطة والفأر وكل الحيوانات إذا حاولوا الدخول".

بكى ابنى الصغير وفتح باب الشقة وقال: "لا توجد قطط أنت تحلم"، قالت زوجتى: "خير اللهم اجعله خير ده كابوس يا ولاد وغار فى داهية"، أخذنى الثلاثة وساروا وسط الصالة حتى وصلوا لسريرى وغطونى وقالوا: "نام يا طه.. نم متخفش".

حين غطت عينى فى النوم وجدتها تقف أمام باب الشقة تبلحق فىَّ وتهددني، تحسست السكين تحت المخدة، ضحكتْ عن آخرها وبخفة أمسكت يدى وأخذت السكين، كنت مستسلماً دون إرادة، قالت: "لن تقوى علىَّ، لا تعاندنى، سلمنى لي أولادك وسوف أتركك بحالك، لن أسمح لك بالنوم داخل الشقة مع أولادك بسلام وأنا أهيم بالشوارع"، تدخل قط كبير كان يعاشرها وقال: "يمكنك أن تحمى أولادك وشقتك إن خرجت بصحبتنا تتجول معنا بالمناور والبيوت وتعاشرنا دون قيود".

قبلت عرضه، وقمت وجمعت ملابسى بهدوء وقررت الرحيل ، سألنى ابنى الصغير: "على فين يا بابا؟" قلت: "سأغيب يومين وأعود"، صرخت زوجتى قائلة: "لن تخرج أنت مريض.. لن تخرج قبل شفاءك"، حاولت تبرير إخلاصى لهم، لكن القطة التى كانت تتونو أمام الباب أمرتنى الخروج فهرولت دون النظر فى عيونهم.

"اللحظة الفاصلة"

الجميع وقف يتحدى تلك اللحظة.. بين المساحة الواسعة التى نمتلكها جميعاً وبين الممر المغلق ، الكل مشغول بمساحة أكبر ليتحرك فيها ويتساءل: "أين سيتجه فى هذا العالم الضيق؟" ينزل الملك عن عرشه ويسأل نفس السؤال: أين سأذهب، سأغلق دارى كما أغلقه أبو سفيان يوم اجتياح النبى محمد مكة".

لكن الرحمة تستدعى أن نقول له: "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن".

الساحة التى كانت تشكل براح العالم أصبحت الآن ضيقة، ستغلق الأبواب والميادين فى المساء.. أين سيذهبون؟.. هذا عمهم يتخلى عنهم.. وأبوهم يكفر بهم، أين سيرحل الأبناء؟

وقف الجميع مندهشين متسائلين: "ماذا ستفعل الدنيا بنا"، فى الوقت الذى نترك فيه العمر يجرى دون أن ندرى، نتخيل أنه مازال طويلاً أمامنا؟ تفاجئنا الأيام لتساءلنا: "كيف ستقضون المتبقى من العمر آمنين؟".

اليوم علموا جميعاً أن الأحلام والأنهار والبيوت والمياه والأرض والسماء قد سرقت، حتى الفضاء لم يعد له أثر!

حين ظهرت كومضة، لم يتخيلوها، ألقت بهم جميعاً بالأرض جثثاً عفنة.

ما الشيء الغالي الذي فقدنه، فماتت أحلامنا ومشاعرنا وأحسسنا بالهزيمة والضياع؟ ما الذكرى التى غابت، فظهرت جثثنا النتنة على شاطئ النهر ليتركها الصيادون تُخرجِ روائحنا الكريهة، فيبصق علينا المارة؟ ما المبيد الذى رشه الكلاب فوق جثثنا فأزكم أنوفنا؟ ما الشيء الثمين الذي يأخذه الهواء الفاسد من أروحنا فيفقدنا الحب والأمل.. ما هو؟

انهارت المعايير والأسس التي بنينا عليها كل شيء فى أحلامنا، وفقدنا معنى الماضى والمستقبل والحاضر.

فى تلك اللحظة يظهر المزيف الذى كنا نؤمن بأنه سندنا فى الخلاص، قالوا يومها: "من ليس له جذور ينهار"، الشجرة الوارفة التى تقاوم الريح والمطر لها أساس ثابت، فأين جذورى التى أستند

عليها لأواجه جبروتهم؟ أين أخواتى وأصدقائى وأهلى والبشر الذين قدمت لهم الخير ليعينونى فى تلك اللحظة؟

كان يحيا فى النور ويمشى فى الطرقات الواسعة، يساعد الجميع، كان الأهل يعشقونه، دائماً يقدم لمن يحتاج، عاش كسند، تمنوا أن يطعموه أشهر الأطعمة، البنات الرشيقات والسيدات المتزوجات والعازبات تمنينه فى أُسَرِهِن، فكيف يمكن لشخص لم يعرف الظلام وهو يعطى الجميع أن يكرهه أحد ؟ لم يعرفوه إلا فى لحظة الضيق ليفرج عليهم، حين أغلقت الدنيا أبوابها عليهم جميعاً ولعنوا الظلام، تمنوا أن يعيشوا بقلبه طوال العمر، كيف يمكن أن يجد شخصٌ كل هذا النور ويتمنى الظلام؟

حين انطفأ النور بالبلدة وأظلمت شوارعها، ذهبوا إليه وجدوه ميتاً، رغم أنه كان يتنفس مثلهم ويتكلم، كان قلبه جامداً كقلوبهم ، ولم يصدقوا أنفسهم، ظل يعطى طوال العمر وفى لحظة طالب بحقه فى الظلام.

بين النور والظلام يتغرب الهواء، يتسمم الماء، أطير وحدى لأواجه تلك الومضة التى توقظنى من أحلامى وتقول: "كفى... ابدأْ من جديد".

كيف يمكن ذلك؟ والذى ضاع ومر من العمر واعتقدنا أنه ملكنا، كيف فر من أيدينا فى غمضة عين؟ أشاهد كل البيوت العالية والأراضى البور والنهار والليل والظل والحر والحب والكره مقسومين ومفصولين عن بعضهما البعض، ليس هناك أى رابط بينهم، كيف يمكن أن أنسى اللحظة التى ظهرت وفاجأتنى بالسؤال: مَنْ أنت فى هذا العالم المقسوم؟

أعيش بقلبين، قلب للحب وقلب للكُرْه، من يربط بينهما سواى..؟ أنا الذي أتوسطهم.. أنا الذى قسمتْ ظهري تلك الومضة وأحاول تجاوزها، أصنع أواصر جديدة بعد أن مزقتها وتهرأت، وفصلت قلوبنا.

من يضمد هذه الروابط غيرى؟ كيف يمكن أن أفعل ذلك وهى تسخر منى وتقول: "لن تستطيع الهرب..؟ أنا القدر الذى لا مفر منه"، أناطح وأقول فى تحدٍ: "أيتها المجرمة سوف أتجاوزك.. سوف أتجاوزك".

"الطلاق"

أكسب قوتى بعرق جبينى، أشق الشوارع بخطواتى الثابتة، كالنسر الطائر لم أسمع أبداً كلام أحد، لم أتوقف عن الطيران، كانت روحى تقودنى، عاشرت نساء كثيرات، شربت كل أنواع المخدرات، صاحبت أصدقاء السوء، المجرمين والأشرار والمتاجرين بحياة الناس دون قلب، عشت حياتى بالطول والعرض، بعد عشرين عاماً، فوجئت بزوجتى تطلب الطلاق!

تشاركنا بأحداث كثيرة، أنجبنا ثلاثة أطفال، انفعلنا وأخرجنا كل حنية الدنيا من قلوبنا، لازمنا البهجة أياماً كثيرة، عشنا ليالى حزينة كثيرة، تفحمت علاقتنا، رويناها لنعيد من جديد إنبات الحب ، استطعنا أن نمر من الدنيا سالمين.

كانت "فاطمة" الملكة المزينة بأجمل الورود، تسهر تنتظر زوجها كل ليلة معطرة برائحة البنفسج، حينما يأتى تأخذه بأحضانها وتسحره بحجرة النوم، تخفف إضاءتها، تخلع ملابسها قطعة قطعة فى صمت، لكن رائحة أنوثتها تفجره، قبل أن تلمسه تكون قد انتهت تماما من خلع ملابسها، تظل عارية تتجول فوقه بالسرير، يلقى بتعب النهار فى فرجها دون أن يدرى أن قلبها المملوء عشقاً يتغذى بحبها ويفيض كل ليلة دون نهاية.

كالمهرة لا تتعب، تغير ملابسها الداخلية، يتفرج عليها، ترقص أمامه، لا تبغى شيئاً سوى رجولته.. أين ذهبت تلك الأيام؟

كان صباحاً عادياً حين استيقظتْ من النوم ووجدتنى أغتسل بالحمام، لم تقل صباح الخير كعادتها، ولم أبادلها التحية، لكنها قالت: "إنت رايح فين؟" قلت: "الشغل"، قالت: "متنزلش النهاردة لأنى عايزة أطلق"، قلت لها بعد أن استكملت لبسى دون أن أرد عليها: "إنت طالق" وخرجت.

شعرت فاطمة بأن الدنيا انهارت من تحت قدميها، فى تلك اللحظة لمحت على وجهها انفراجاً لم أشاهده قبل ذلك، لم أكن مشغولاً إلا بملامح وجهها، لم تنفعل وقالت: "ابعتلى ورقتى".

خرجت من المنزل دون أحاسيس، نزلت درجات السلم، قابلت "أم حسن" البوابة، قالت: "صباح الخير يا باشا"، قلت: "صباح النور"، لم أكن أعرف أن لى أولاداً ثلاثة يحتاجوننى، لم أحس وقتها أن أكبرهم الذى يمتحن بالثانوية يحتاج لجو صحى كى يستوعب دروسه وينجح، لم يهمنى أن ابنى

الصغير الحساس يحتاج حنانى كى لا ينحرف، لم أكن أحس وقتها بأى مشاعر، لم يكن يلازمنى وقتها إلا احتياجى للصراخ أو الانفعال.

جلستُ على المقهى المقابل للمنزل، قررت عدم الذهاب للعمل، احترت أين سأذهب، ثلاثون عاماً وأنا أذهب للعمل، اليوم يأتى صباح جديد دون نية للعمل، إنها الجريمة الكبرى التى وقعنا فيها، العمل والسير دون هدف غيره ، اليوم أتلقى النتيجة وأنطقها دون إحساس بالذنب أو مقدمات: "إنت طالق".

جاءنى والد زوجتى عند المساء، حاول أن يفهم ما حدث، قلت له: "اسأل بنتك"، استدرج الأبناء الثلاثة عن الأحداث التى مرت خلال الأسبوع الأخير من قرار الطلاق، لكن الأولاد لم يكن لديهم رد سوى: "لا شئ"، حاول أهلى اصلاح الخلل دون أن يتخيلوا أبداً أننى يمكن أن أنطق بهذه الكلمة، لكنهم أبداً لم يفهموا سر قرارى المفاجئ.

حين جاء أخُ زوجتي وأنا على المقهى الذى يتوسط حديقة كبيرة على النهر، قال وهو ممسك يد أخته ومعه أبنائى الثلاثة: "أنت اتجننت يا أبو العيال"، أخذتُ ابنى الصغير الذى لم يتعد العاشرة فى حضنى وقلت: "تشرب إيه"، ونظرت ناحية الصيادين والفراغ اللا منتهى فى الجزيرة أتحسس بكارة الموج.

جلست زوجتى حزينة بجوارى، قالت لأخيها: "مفيش فايدة، لن أعيش معه مرة ثانية.. هذا ليس زوجى أبو أولادى".

انشقت الدنيا وانفصل الخير عن الشر والحب عن الكره، أصبحت الدنيا واضحة ليس هناك غموض ، قلت لنفسى: "الباقى من العمر سيمر واضحاً، لن أعيدها مرة أخرى ولتأخذ كل شئ".

كان القرار نهائياً دون أن يعرف أحد، لماذا أخذته، أنا الوحيد الذى كنت أفهم السبب ولم أقله أبداً.

"الوحيد"

لن تدخل المكان مرة أخرى ، لن أقتسم معك لقمة العيش ؟ كيف هانت العشرة القديمة عليك وألقيتَها في سلة المهملات؟ لماذا تطاير الشرر بعينى حين لمحتُ وجهه وهو يقول: "عايز حقى ".

حاولتُ بينى وبين نفسى أن أرمق عيونه ، كنت أقول إنه طماع يرغب فى أخذ شقايا ، لماذا اختلفتْ رؤيتنا ، فأصبحتُ أفهم كل كلمة يقولها بشكل معكوس ، إن قال: "الله يسهلك" ، أفهمها كأنه يقول: "روح فى داهية" ، إذا قال: "حقك علىّ" ، كأنه يسبني.

لماذا تحولتُ إلى مجرم وحولته إلى أضحوكة؟ امتلكنى الغرور وأحسست أننى يمكن مواجهه العالم ؟

استيقظ من النوم صارخاً: "لن أستكمل مسيرتى معه".

فى هذا اليوم ، اتجه لبيته ، نادى عليه من تحت البلكونة: "انزل يا محمود انزل" ، قال محمود: "صباح الخير" ، لم يرد عليه ، قال بغضب : "لن أستكمل معك الطريق .. من اليوم سوف أسير وحدى".

سلبت روحى منى ، كأننى شخص آخر غيري .. حين تركته بعد أن قلت كلمتى الوحيدة: "لن أستمر ، أيقنت أننى وحيد.

كان انفصال الروح عن الجسد شيئاً مرعباً ، لم أتصور أبداً أننى سأعيش دونه ، رفيقى الذى اعتمدت عليه فى كل شئ .

هل طبيعة الدنيا التى تمر على جثثنا وتتغلغل فينا دون أن ندرى حتى تفقدنا أعز ما نملك ، وتتركنا دون إرادة لنعيش فرادى كالوحوش أو الجبناء؟ حتى الكلاب يا رب تعيش فى جماعات ، فماذا تسمى حياتى الجديدة؟

كيف تأخذنا من أيدينا دون أن ندرى لتقذفنا معاً فى طريق مشترك؟ وبدون مقدمات تقول لنا: "عودوا مرة أخرى ، لن تستكملا المسيرة معاً؟"

كنت أمر عليه كل صباح ، نذهب لعملنا ونختلف ونتفق على معانى الكلمات ، نندهش حين تخرج خلافاتنا معنى جديداً إضافياً يبهجنا ، نحس برقة الخلافات وأهميتها ليتطور فهمنا عن الدنيا وإبداع المعانى الجديدة ، لم يمر يوم إلا وتقابلنا معًا وتجادلنا وأكلناوشربنا سويا.

كنا نسقى حياتنا طوال النهار من وعاء يوحد بيننا ، ونعود فى المساء ، نلاطف المارة ، يستحم كل واحد منا بمنزله ويأكل مع أسرته ثم نتقابل على المقهى ، نسهر طوال الليل لدرجة أدهشت كل المقربين منا ، اتهمونا بممارسة الجنس معاً ، فكيف لرجلين أن يعيشا بحب لهذه الدرجة كل هذه المدة.

حين نظر إلىّ بحقد فى آخر يوم بيننا واتهمنى بأننى أحب نفسى اكثر منه ، انطلق المارد داخلى يعلن له فى تحدٍ: "سأقف هنا .... هنا نهاية الممر".

بحثت فى اللحظة التالية بقلبى ، لم يكن فيها قرينى .. لم يصدق صديقى البرئ .. أننى قلتها: "سأكمل وحدى" ، قطعت ورقة الأجندة المكتوب فيها اسمه ، قلبت فى قلبى لم أجده .

القيته فى سلة المهملات ليأخذه حسن الزبال لمقلب القمامة ويحرقه .

"الجوهرة"

غافلتُه وهو نائم ، أحضرتُ قطعة حديد برأسين مدببين من جانبيها ، أدخلتُها بفمه وهو يخرج زفيره دون أن يدرى ، فاجأته وهو يحلم بالمملكة الواسعة التى يتربع على عرشها بغرس الحديدة المدببة بأعلى فمه وأسفله ، عجز عن النطق ، تلوى بسبب الألم ، كيف استطعتُ أن أستخرج الجوهرة من بين فمه؟

اعتقدَ أنه يحلم حين شاهدنى أقف بثبات فى مواجهته ، نظرتُ داخل فمه دون أن يخيفنى صراخه ، رأيت أعضاءه الداخلية بوضوح ، ظهر كرشه أمامى مفتوحاً ، أدخلت يدى بمهارة الحاوى ، لم يكن يعوقها شئ ، أخرجتها من بطنه دون أن يصيبنى سمه.

أثناء نظرى بعمق داخله لمحتها مختفية بقلبه ، انطلقت خارج من قلبه الي نن عينى .

كنت أقف فوق ربوة عالية والليل حولى يعلن الظلام ، أضاءت الجوهرة الكون ، وتفتحت الزهور ورايت يوم العيد بالقرى البعيدة ، ونطلق الأطفا وراء البالونات يركبون العربات الكارو ويغنون "على عليوة".

لمحت أشجار الصفصاف والخيول منتشرة حول الحقول ترقص ، لكن ذيل البغل لسعنى وقال : اغرب عن بيوتنا .. ارحل عن دنيانا".

لم تؤذنى لسعاته ، استمرت عينى التى ملأتها الجوهرة بالنظر بعمق للكون لتضئ النجوم السماء وتبهج البشر .

كان الثعبان الذى ظل محتفظاً بالجوهرة زمناً طويلاً بقلبه دون أن يعرف قيمتها قد أعياه التعب ونام مغشياً عليه لا يتحرك ، كان قلبى الممتلئ بالعين الجديدة ينظر إليه بشفقة.

أخرجتُ من فمه قطعة الحديد المدببة ، وتركته لظلامه سائرًا ناحية النور.

كنت مذهولاً من الانطلاق كلما شاهدت الخلق والمزروعات والشوارع ، أيعقل أن يخفى الثعبان طوال العمر الفائت عن أعيننا كل هذا النور ؟!

انتهى الظلام ، توحد العالم ، لم يبق إلا السعادة التى تملأ وجوه الأطفال ، ظهر الترابط بين جذور الشجرة والماء والغدير والعصافير والموسيقى ، انطلقت الزغاريد تعلن عن زواج البنات ، غنت الأمهات الأغانى المبهجة: "ورق العنب ضلل على بيتنا".

تراقصت العصافير والكلاب ، غنى الحمام واليمام ، طار النوم من اعيون الجميع ، إنه يوم العيد ، الشيء الذى يجمع الناس فى كل العصور "الفرح" .. لا يستطيع أحد أن يقاومه ، لا يستطيع أحد أن يقف أمام بهجتة ، انتشر الخير فى كل النجوع والحوارى ، النور قادم ، انتهى الظلام ، لم تعد إلا الجوهرة التى ملأت القلوب ودخلت روح الجميع.

لم يعد يتذكر أحد الثعبان وشره ، الماضى المظلم شئ كريه ، يجب حرقه ، انفجرت قلوبنا بالجوهرة ، اليوم لا يستطيع احد أن يقف أمام النور ؟ .

"أمل"

فى الساعة الواحدة ليلاً قررتْ أن تحزم ملابسها وتترك البيت وتواجه الأب والإخوة الذين غدروا بها وحرموها البراح ، لبستْ ملابسها كاملة ووضعتْ سكيناً بحقيبة يديها الصغيرة ، وضعت باليد الأخرى شنطة صغيرة بها بنطلون وعدة بلوزات اشترتها ، لم تضع أى قمصان للنوم أو مشدات للصدر أو كلوتات دون أن تدرى أهمية هذه الملابس الداخلية.

تذكرتْ "أمل" حضن الحبيب الذى اختلى بها بالصيدلية بعد إغلاق بابها ، جلس بجوارها يعلمها بهدوء ، كيف يمكن أن تعاشر الرجال ، فك ضفائرها ورفع طرحتها ، أدخل أصابع يديه كاملة فى شعرها ، دعك برفق خلف أذنها ، مالت عليه ، أخذ شفتها السفلى بفمه ، خلال دقيقتين كانت يداه تتجولان تحت ملابسها وتفك مشد صدرها ، تتلمس حلمات ثديها ، وضع ثدييها كاملين بيديه وضغط عليهم برفق ، ارتمت عليه ، كادت أن تقع ، قال: "يجب أن تتحدثى أثناء معاشرتك" ، لم ترد ، فقال: "اشتمينى ، افتحى عينيك وانظرى لعينى ، ضعى فيهم سحر النساء وحبهم" ، أمسك يديها ووضعهما على قضيبه وقال: "ما اسمه" .. لم ترد ، وضع يديه على فرجها ، وقال: "ما فائدته" .. لم ترد ، أنزل كلوتها ، تحسس فرجها كاملاً ، رفعها لتنام على كنبة الزوار ، اعتصر فخديها ونهديها بلسانه ، ذابت وانفجرت فيه وقالت: "كفايه كده" ، قال لها: "امسكيه وضعيه في فرجك" ، ذابت من قذفه وقذفها ، اكتملت "أمل" كامرأة ، أحست بغبطة لم تتوقعها أبداً ، حرمها الأب والعائلة متعتها ، قالت: "لن يحرمنى أحد رحيق الحياة".

أدارت المفتاح بباب الشقة وخرجت ، نزلت للشارع أحست بالهواء المنعش يدخل جسمها ، أشارت للتاكسى وكأنه ينتظرها وركبت بجوار السائق دون أن تنطق بكلمة ، قال لها: "على فين يا أبلة؟" قالت دون أن تلتفت: "أى حتة بعيدة عن هنا" ، تململ السائق ، فقالت بغضب: "وسط البلد".

كلما ابتعد التاكسى عن المنزل أحست بقرب هواء البحر رغم أنها تسكن بصحراء المدينة ، لكن رائحة البحر الذى لم تره إلا مرة واحدة مع أسرتها منذ عدة سنين تلازمها كلما ابتعدت ، لم تكن تصدق أنها غادرت.

تحدثهم وخرجت وانفصلت عنهم ، استطاعت أن تفجر هذا الهواء المحبوس داخل حجرتها وتنطلق منه غير عابئة بالموت ، لم تكن تعرف أين ستتجه ، لا يهم .. المهم أنها استطاعت أن تهدم جدران عشرين عاماً مرة واحدة بنيت حولها دون أن تدرى؟

عشرون عاماً من الأوامر والنواهى ، لا تخرجى بتلك الملابس .. لا تتأخرى ليلاً .. من كان معك ..؟ لماذا تصاحبين هؤلاء الأولاد ..؟ من يأخذ معك دروس ..؟ من هم مدرسوك .. لا تقتربى من الشباب .. لا تحدثيهم .. لا ولا ولا.

عشرون عاماً لم تسمع إلا كلمة "لا تفعلى" ، لكنها استطاعت فى النهاية أن تقول لا لكل تلك الأوامر والنواهى ، وخرجت غير عابئة بمصيرها.

خلال الطريق مرت حياتها السابقة سريعاً ، منذ طفولتها وهى البنت المجتهدة بالمدرسة ، مع ذلك كان أبوها ينظر إليها بقرف ويفضل إخواتها الذكور عليها ، انتصرت بمعارك التعليم ، دخلت كلية الصيدلة وتفوقت على نفسها ، وعملت بصيدلية قريبة من منزلها ، اجتهدت لمدة عام بها حتى أصبحت مديرة لها.

لكن الأب والأخوة الذكور لم يكونوا يرون سوى صدرها المفتوح وفرجها اللين الذى يطمع فيه الرجال ، رفض الأب الموظف المقتدر الذى يصلى كل الفروض ما يبهجها ، ارتبطت بزميلها بالصيدلية ، تقدم لخطبتها ، ورفضه الأب لأنه لا يملك شقة بالمدينة ، قالت لـ "أبوها": "أنا أرغب فيه وسأتزوجه" تكررت الصراعات والإهانات.

طلبت من حبيبها أن يتزوجها دون إرادة أهلها ، جبن ورفض خوفاً من نفوذ والدها ، اضطر صاحب الصيدلية أن يطردها من العمل ، عادت للمنزل بعد فصلها ، استقبلها الأب كطاووس منتصر فى معارك الأوباش ، وقال لها: "لن تخرجى من المنزل حتى تتزوجى ، من اليوم لا عمل لك ، لا حجة للخروج".

كاد عقلها أن يتوقف وقالت: "سأخرج" ، وتركته ودخلتْ حجرتها وجهزت شنطة التحدى ، قالت لنفسها: "عشرون عاماً بهذا السجن تكفى .. سأخرج" ، حلمتْ بالبراح وحققته ، لم تخفها نظرات الأب المنتصر على عجز حبيبها ، حين قابلها الأب والإخوة بالصالة ، قالت لهم: "من يمنعنى سأقتله".

قال السائق: "يا موزمازيل وسط البلد" ، نزلتْ بعد أن أعطته عشرين جنيها ، لم تكن تمتلك غيرها ، حملت حقيبتها وحيدة تواجه العالم ، نظرت للشوارع المظلمة والمحلات المغلقة ، وقالت لنفسها: "لا يهم غداً سيفتحون".

"أمينة"

وقف "سعيد المنصورى" وسط الشارع عارياً ممسكاً سيفه يحيطه الناس ليمنعوه من ارتكاب جريمة قتل ، وحملت زوجته وأبناؤها الثلاثة السكاكين وفجروا رأس وقلب "حسن" أخيه.

طالت سيرة هذه العركة البلاد الأخرى بعد أن قاتلوا بعضهم حول محل العصير الملوك لوالدهم ، قسموا منزل والدهم لخمسة بيوت لا يزيد مدخل أيًا منها على نصف متر يفتح على حجرة واحدة بدون حمام.

تساءلنا كثيراً ونحن نسير أمام البيوت الصغيرة: "هل هذه بيوت يعيش بداخلها بشر؟" ومع مساء كل يوم يخرج أبناؤهم للشارع يفتعلون المشاجرات ، يفترشون الحصر أمام منزلهم ، ينامون عليها ملتصقين غير عابئين بأعضائهم التناسلية العارية.

عاد "سعيد" من السجن وركب عربته الكارو ليجمع زبالة الشوارع ، يغسلها نهاية اليوم ويضع عليها الحصيرة وينام أمام منزله المكون من مدخل وحجرة واحدة.

يدخل "سعيد" على زوجته النائمة وحيدة بالحجرة ، يرفسها بقدمه فتصحو من النوم مفتوحة الصدر ومملوءة بكارة ، قبل أن تستكمل يقظتها يدخل تحت اللحاف ، ويتحسس جسدها فتنبض بالحياة ، ينفجر فيها ، يدخل قضيبه الملتهب بين أحشائها ، تصحو من النوم ، تقول له: "جرى أيه يا راجل كفاية كده" يستحم ويعود لحصيرته على العربة الكارو ، بعد أن تستحم تلبس ملابسها الفاتحة وتجلس على ظهر العربة تتأمل الناس مبتهجة ثم تغط فى النوم بجواره.

لماذا تعطى البيوت للناس هذا الإحساس بالأمان؟ لماذا إغلاق باب حجرةٍ آخر اليوم والنوم فيها وسط الأهل يعطينا كل هذا الأمل؟

من قسم هذه البيوت بالبلدة وأعطى لها كل هذه المعانى بقلوب بشر تجاهد ليل نهار من أجل لقمة العيش ولا يحصلون عليها فى أحيان كثيرة؟ وعندما يشاهدون منزلهم ويغتسلون وينامون يضيع هم النهار.

بعد سنين طويلةٍ شاهدنا "أمينة" ابنة "حسن" المقتول تخرج عارية ، وتطلب من عمها "سعيد المنصورى" وأبنائه أن يخرجوا لملاقاتها كى تأخذ ثأر والدها ، كان "سعيد" وقتها نائماً على عربته

الكارو بجوار زوجته وتحيط بهم زبالة الشارع ، أحاطها أعمامهم وزوجاتهم كى تؤصر الشر ، مزقت فخذها بالسكين ، عاصت كفها بالدم ، قالت: "هشرب من دمه" ، رفعت السنجة فى وجه الجميع لتعيد مشهد القتل وحكايات تقسيم منزل "المنصورى".

لماذا ألقت "أمينة" على وجه زوجة عمها ماء النار وأشعلت النار فيها ثم ألقت بأبنائها وسط أكوام الزبالة وعجز الجميع عن ملاحقة الظلام المنتشر؟ لماذا كانت تتسلق كل جدران البيوت والحوارى لتكسب قوت يومها وتطعم إخوتها اليتامى إذا كانت ترغب فى الدم؟

حين عرت نفسها وعاصت وجه الجميع بدم عمها القاتل المقتول ووضعت الروث فوق رؤوسنا ، هل كانت ترغب فى هدم جدران المنازل الخمسة ، أم الأخذ بالثأر؟

كان أعمامها يقفون أمامها ويقولون لها: "خلاص يا أمينة يا بنتى الشر نهايته شر ، كفاية كده عليه" ، لكنها وقفت شامخة بسنجتها وحين حاولت زوجة العم ضرب أمها ، قالت لها: "اقتربى من أمى لأقطع رأسك ..اقتربى يا فاجرة" ، والأعمام والأهل يحاولون منعها ، قالوا لها: "معليش يا أختى .. سيبى الجرح الزمن هيداوى ".

ترنح عمها "سعيد" فى العركة وفقد الاتجاه ، قطعت سنجتُها رقبتَه بضربة واحدة ، وبدأ الصراع بين عائلة ظلت سيرتها حول حدود المنزل تتداول ، دون أن يفهم أحد ، ماذا يوجد بهذا المنزل ليرتكبوا من أجله كل هذه الجرائم؟ يحكى الناس صراعات الأجداد حول هذا المنزل واستيلاء "سعد المنصورى" والد "سعيد" بالقوة على مفاتيحه بعد مقتل أخيه وزواجه من امرأته.

ورغم هذه السيرة الدموية لعائلة المنصوري لكنني كلما مررتُ على منزلهم أتمنى رؤية عيون "أمينة" المملوءة براءة.

"حميدة"

اجتمعتْ بوسط المنزل مع الرجال الذين دعتهم لتقسيم التركة مع عمها باعتبارها وحيدة أبيها المتوفى ويرث عمها نصف تركتها ، تحدثتْ كالرجال رغم أن عمرها لم يتجاوز الخامسة عشرة وقالت: "عمى ربَّانى وله الفضل علىَّ ، لكننى أرغب بقطع لسان الناس التى تردد بإنه سيحرمنى الفدادين الخمسة إرثى من والدى".

قال عمها للرجال المجتمعين: "رغم أنى أرث نصف تركة أخى إلا أنى سأعطى لابنته كل ملكه ، كل شئ بينى وبينها بالنصف" ، وكتب بالفعل كل تركة والدها لها.

فى اليوم التالى زوَّجها لابنه الكبير "عبد الله" ، استطاع أن يستولى على كل ما تملكه دون أن يتدخل أحد لأن ابنه "عبد الله" ورث أرضها على حياة عينها ، أنجبت "حميدة" "سعيد" و "شعبان" وقبل أن يبلغ أكبرهم العاشرة مات أبوهم ، أدارت نصيب زوجها بالإضافة إلى ملكها بكفاءة أذهلت الجميع ، حين علم عمها بوفاة ابنه قطع النفس والكلام لأن البنت التى رباها استولت على التركة بمفردها.

زرعتْ أراضى واسعة تزيد على عشرة فدادين وربت عشرين جاموسة وخمسة عجول ، وحقد عليها إخوة زوجها ، استكثروا عليها التركة وهم يعرفون أن نصيبهم أكلته امرأة ، وأصبحت مطمع الكثير من الرجال.

تواطأ أولاد العم مع البلطجية لمنع المياه نزول أراضيها وحرق شونة بهائمها ، تفتق ذهنها يوم سرقة جاموستها وقالت: "أحمى المال بمال ، أنا امرأة جميلة وسوف أدفع الثمن" ، خططتْ لترافق "فيصل" قاطع الطريق ، كانت تختفى بالليل بعد نوم أبناؤها بملابس الرجال وتذهب إليه بزريبة مواشيها لتحرس حقلها وتستمع بمعاشرته وسط الخضرة ، وقبل أذان الفجر تترك "فيصل" وتعود لمنزلها متخفية بملابس الرجال.

لم يجرؤ أحد على النزول لأرضها بعد علمهم بمرافقتها "فيصل" ، بَنتْ بيتاً جديداً وسط الزراعات ونامت فيه مع أولادها ومواشيها ، كان يعمل لديها فى إدارة تركتها الكبيرة ثلاثة رجال ظلوا خُدَّاما لامرأة كانت تشع أنوثة ، عشقوا ضحكتها دون أن يدروا أن زيارات "فيصل" خلال السنين

الطويلة ومعاشرته كل يوم هى السبب فى بهجتها الدائمة ، هل كانت تستمع بعلاقتها به أم تستخدمه ليحميها ويحافظ على تركتها من اللصوص وقطاع الطرق وأقاربها؟

فتح الله عليها فأقامت كل يوم خميس ليلة لأهل الذكر ، كانت تذبح الطيور والأغنام والماعز ، وتطبخ أشهى المأكولات ، كان بيتها المقام وسط الزراعات يشغى بشراً ومريدين ليل نهار ، وكانت تقول: "إن الله يرزق من يشاء بغير حساب".

اشترت أرضاً إضافية لتصل تركتها لعشرين فدادين وثلاثين جاموسة ، حَسَدَها الجميع ، فكيف لامرأة تعيش وحدها السيطرة على كل هذه المساحة وتستمع بحياتها؟

حين كبر أبناؤها زوَّجتهم فى ليلة واحدة ومنحت الرجال الثلاثة الذين خدموها منزلاً وقطعة أرض لزرعتها والاستقلال عنها.

فى هذا اليوم أعلنت زواجها من فيصل.

تركت أولادها وذهبت لبيته وسط الحقول لتعيش دون ملابس داخلية ، لم تحافظ على شئ حتى ماتت باستثناء إحياء ليالى الذكر وذبحها عجلاً كبيراً فى مولد "سيدى الطمبوري" واعداد الطعام للمريدين بنفسها .

استمعتْ بكل دقيقة ، أخذت كل شئ ، الانطلاق والعمل والبهجة وتركت الحوارى والبيوت القديمة تغرق فى النميمة ، كانت تنام فى نهاية عمرها أمام منزل "فيصل" بملابس خفيفة كاشفة عن أجمل جسد خلقه الله ، ويسأل الناسبعد رحيلها : "كيف فعلت ذلك ، هل ساعدها القدر؟ أم تحديها للرتابة هو الذى جعلها تفهم سر الحياة.

"هانم"

مات "على الفحام" بعد عام من زواجها ، لم تنجب منه ، واتهمها أهل الزوج حتى لا ترثه بأنها سرقت الذهب والنحاس وفلوس أخيهم وخبأتها عند والدتها.

قال العمدة: "يا هانم النحاس مقابل التركة" ، تركت حجرتها بالفرش ، وعادت لمنزل والدها ، زوَّجها بعد عامين لقاطع طريق ، كانت تغط بالنوم أثناء ركوبها الحمارة عند ذهابها للحقل أو فى العودة منه ، ولفرط طيبتها رفضت معاشرة المجرم الابعد ان أوهمها بأنه لم يعد يسرق.

حين عاد للسرقة ، تركته وذهبت لمنزل والدها مع ابنتها ، فأعاد أبوها الإبنة الصغيرة لبيت أبيها وطلقها منه ، ولأن "هانم الطيبة لم تجرحها كلمة واحدة فلم تخرج من منزل والدها إلا بعد أن جاء "عاشور الجربان" وتَّزوجها على زوجته التى لا تنجب.

بعد إنجابها "صلاح" ، حرمت نفسها عليه لأنه يفضل الزوجة الأولى عليها، وظلت تعبد ربها وتشكره على رزقها بالملاك الصغير ، وحين أخذوه للجيش طلقت نفسها من "عاشور" لتعفيه من الخدمة ، ذهل الناس وسألوها: "كيف ستطلقين منه وتعيشين بمنزله؟" قالت: " سأعيش لأخدم ابنى".

زوَّجتْ ابنها من بنت أختها لينجب عشرة أطفال ، ظلت تخدمهم دون كلل ، وظل الناس ينادونهم باسم جدتهم "هانم" ، كانوا يفتخرون بذلك ، وظل جمال روحها وبراءتها علامة على قصة كفاح لامرأة ظلت تعافر فى الحياة لتأخذ مساحة تحت السماء ، حرمت نفسها متعة المعاشرة والكلمة الطيبة من الزوج لاعتزازها بكرامتها.

حين كانت الزوجة الأولى تستحم فى الليل بالحجرة المقابلة لحجرتها كانت تأخذ "صلاح" بحضنها وتبكى ، ظلت عشرين عاما لم تحل ضفائر شعرها حتى لا تشمت فيها ضرتها ، التى تغنى وتطرقع اللبان الدكر بالنهار رغم أنها لم تنجب لـ "عاشور الجربان" الأبناء ، لكنها سقته رحيق الحياة الذى ظل دائماً عطشان إليه خاصة بعد أن رفضت "هانم" نومه بحجرتها.

لم تحلب الزوجة الأولى البهائم ولا جمعت الروث ، كانت مشغولة بنظافة ملابسها ، ولا يمر أسبوع إلا وتجهز الحلاوة وتنظف قدميها ويديها وبين أفخاذها وفوق فرجها وتحت إبطيها لتصبح كالعروسة ليلة كل خميس .

عندما يأتى "عاشور " من الحقل يتعشى معهم ، ويدخل حجرة الزوجة الأولى لتحكى حكايات البلبل الذى ترك الشجرة لينعم مع العصفورة بالعشق ، وكلما انتهت من حكاية ينهض "الجربان" ليجدها مفتوحة القدمين على السرير ، تقول بلوع وصوت مسموع: "ضع فرجى بين كلوة يديك الاثنين ، هل زاد وزنه أم قل عن الأسبوع الماضى؟" كان "الجربان" يسمع كلامها فيقول لها: "يا مَرة يا فاجرة أعمل فيكى إيه" ، ويبرك فوقها كالوحش ، كلما هدأ حكت له حكاية جديدة حتى يؤذن الفجر ، فتقوم وتحمِّيه بالماء الساخن ، ليصلى بالجامع ويعود لينام أمام المنزل حتى الصباح.

كانت حكاية كل خميس تتكرر ، و"هانم" المجروحة تجلس وحيدة بحجرتها تبكى من جبروت امرأة لم يعطها الله نعمة الخِلفة.

حين يمر الجيران من أمام بابهم المفتوح يجدونها دائماً منهمكة بالعمل ، كانت حجرتها مرتبة دائماً وملاءة سريرها نظزيفة رغم أن "صلاح" ظل حتى زواجه يبلل سريرها ببوله أثناء نومه ، مع ذلك استطاعت أن تبنى امبرطوريتها بمنزل "الجربان" واستولت ذريتها على الأرض والمنزل ونقلت "صلاح" للحجرة الثانية التى كانت تنام فيها ضرتها بعد موتها بشهر من وفاة "الجربان".

احدي الصباحات قامت من النوم وذهبت لـ ستيتة" بائعة الطعمية واشترت بخمسين قرشا فولاً وطعمية ، وكنست حجرتها ورتبتها ، وغيرت ملاءة السرير ، ورشت حول الكنبتين ماء الورد ، وطلبت من أولاد "صلاح" العشرة أن يفطروا معها ، وقالت: " يا أولاد الكلب أنا هموت النهاردة مستكترين علىَّ الوداع؟".

ونادت علي نسائهم من الدور الثانى الذى بنت فيه عشر حجرات ليعيشوا معها جميعاً وقالت: "الرجالة كالكلاب يعشقون الرائحة الطيبة ، ويفقدون حياتهم من أجل النساء الممتلئة أنوثة ، استحموا آخر الليل والبسوا ملابسكم الملونة ، انتظروا عودتهم من العمل ، استقبلوهم بالخبر السار ، اتركوهم ليأكلوا وجبة العشاء لأنها الوجبة الأخيرة ، اتركوا طرف الخيط محلولاً حتى يعودوا إليكم ولا ينظروا لنساء غيركم.

قالت زوجة ابنها: "يا أماه إيه الحكاية" ، قالت: " هموت بعد الظهر ، لا تصرخوا علىَّ ، وغسّلونىَ في حجرتي ، ولا تدخلوا نساء الشارع على جثتى ، ولا تُغَسلَنى إلا يد زوجة صلاح".

حاولوا أن يثنوها أو يغيروا الكلام ، لكنها كانت تعد مرثية جنازتها ، حكت الحكاية كلها ، حكت عن الكفاح والصبر حتى كونت امبراطوريتها واستولت وحدها على التركه لتموت مكتملة رغم غياب كل الرجال.

"جميلة"

كانت معشوقة البيت ، تمشى وسط المنزل الواسع المملوء حجرات وممرات تلاطف أبناء العم وتشتم زوجاتهم فى تحدٍ ، أحببناها جميعاً.

تُناكف الشيوخ بالشارع وتتمخطر دون أن يرف لها رمش ، لعبت الأولى وكانت دائماً تقف مبتهجة فى المربعين الآخرين وتقول: "يا أولى يا أولى أنت فقيرة ولا عجورة".

فيرد الأطفال: "ديه غنية وشقية وصبية".

الجميع يتفرج عليها وهى تحكى الحواديت على مصطبة الشارع ويلتفون حولها ويتمنون عدم انقضاء الليل وهى تقول: "توته توته خلصت الحدوتة" ، عرفها الجميع بشقاوتها التى تخرج تلقائية فترد على الجميع ببهجة تخرجهم من الأحزان.

غيرت طوال السنوات العشر الفائتة الكآبة بالضحك المتواصل والسخرية لدرجة جعلت اسم "جميلة" يطلق عليها لأن روحها الطائرة جعلتها أروع ما أنتجته حارتنا.

حين ظهرت نهودها فوق صدرها كانت تفتخر بها ، لم يهمها أن يظهر فخذاها وصدرها عاريين.

تحركت فى المساحة الواسعة والبراح دون أحزان ، استطاعت وهى البنت التى لم تتجاوز الأعوام الخمسة عشر أن تنظر إلينا جميعاً فى سخرية وتسألنا: "عن ماذا تحافظون؟" هل أحزنها أن أباها لا يمتلك الآن شيئاً من التركة بعد تخلينا عنه دون رحمة فى مرضه واضطراره لبيع كل شئ.

قبل الحادثة بأسبوع دخلتْ الزريبة ، رفعت روث البهائم فوق رأسها وقالت للجميع: "من يقترب منى سألقيه بالوحل ، لا يهمنى سمعتكم أو ماضيكم المبني على جراح الناس ومرض الأهل".

ألقت بصفيحة الجاز على رأسها أمام الجميع وحاولت إشعال النار فى نفسها ، لولا شهامة العم فى اللحظة الأخيرة لكانت ماتت ميتة مختلفة.

قالت عمتها: "منذ أسبوع شاهدتها بالشارع محلولة الشعر وصدرها مفتوح عن آخره وتلعب مع الأطفال ، حين نهرتها قامت وخلعت المتبقى من ملابسها ، أمسكت صفيحة الزبالة ، ألقتها فوق رأسى دون أن تنطق بحرف واحد!"

كانت الأحداث المتلاحقة خلال الأسبوع الماضى لمأساة "جميلة" تفوق تصور أعمامها وزوجاتهم التى تخرج مشاجراتهم روائح كريهة تملأ سماء المنزل الواسع بغازات فجرت المتبقى عندها من عقل.

تشربت من الهواء المسموم المنتشر بعد صراع والدها مع إخواته لطرده من منزل الجد بعد أن باع نصيبه ليعالج نفسه.

تشاجرت زوجات الأعمام فى غياب الأزواج وهن عاريات الرأس ، ملأت عيونهن الشماتة ، كانت تتفرج عليهم وتسخر منهن ، كنَّ مغتاظاتٍ ، فكيف لبنت صغيرة فهم أسرار النساء؟ حين رفعت زوجة عمها الملابس عن أردافها ووضعت أصابعها فى مؤخرتها يوم أن اشتروا نصيب والدها ، وقالت: "يا هيجا بكرة هنطردكوا من البيت وتتشردوا" ، انقلب حالها ولم يستطيع الجميع تهدئتها.

يومها أحست بنشوة غريبة ، واسترجعت فى لحظات وجه ابنة العم التى تكبرها بسنتين ودخلوا العشة فوق البيت كى تتعلم منها عشق الحياة ، كانت ابنة عمها تفهم سر معاشرة النساء ، عرت "جميلة" ، وأمسكت بحلمات صدرها وفركتهم بهدوء ، قالت : "تصورى أنى رجل يدخل عليكى ، يمسك ثدييك ويلحسهم" ، لامست فرجها ، أحست بلزوجة لم تفهم سرها إلا قبل موتها بأسبوع ، قالت لابنة العم: "كيف يمكن معاشرة الصبية" ، جلست بجوارها على الأرض ، وضعت يديها فى فرجها وتأوهت ، نامت جميلة وبركت فوقها ابنة العم ، وضعت يديها بفرجها ، لحست حلمات ثديها ، بعد أن انتهتا من القذف ، سمعت النساء خارج العشة يصرخن ، لبستا ملابسهما وخرجتا دون أن يلمحهما أحد.

فى اليوم التالى لمشاجرتها مع زوجة عمها صعدت للسطوح ، ألقت بنفسها من فوق المنزل ، لولا حكمة الرب لكانت جثتها قد تفتت وأراحت الجميع من أسبوع الآلام.

هربت قبل انفجارها بثلاثة أيام من المنزل عارية الشعر وصرخت بالشارع: "أنا فاجرة يا مراة عمى ، لن أعود لمنزلكم مرة أخرى" ، وقبل أن يلحقوا بها ، ألقت بنفسها بمقلب القمامة ، جروها مملوءة بالقرف رغم نضارتها التى كانت تشع بين ملابسها المتسخة.

هل فجر الشجار بين والدها وإخواته حول حقه المهضوم أنبوبة البوتاجاز فى وجهها؟ أم الماضى الممتلئ بقصص الغل عاد من جديد؟ أَفَقَدْنا البهجةَ التي ظلت تعطر حوارينا لينتشر الصراع حول المساحة التى ضاقت دون أن ندرى أننا خرجنا من الجنة بحرق جميلة؟

"ثريا"

ترك سبعة أولاد من ثلاث نساء كانوا يعيشون معه ، كان أكبرهم "سعيد" وأصغرهم "ثريا" ، بعد أن دفنوه عاد الأبناء جميعاً إلى منزل الأب وقرروا تقسيم التركة.

قال الأبناء جميعاً: "ننتظر حتى مرور الأربعين باستثناء "سعيد" و "ثريا" الذين كتبا عقوداً بنصيب كل واحد فى الأرض والمنزل ، وقَّعا عليها ، واحتارا فى تقسيم الجاموسة الشرك.

قال "سعيد": "سآخذها كمصاريف للجنازة" ، قالت "ثريا": "سنبيعها ونقتسم حقها" ، قال إخواتها: لا يهم يا ثريا اتركى الجاموسة" ، قالت: "سآخذها وأبيعها فى الصباح بالسوق وأرسل لكل واحد نصيبه".

اغتاظ "سعيد" وضربها بمداسه على وجهها ، قائلا لإخواته وهم يمنعونه: "كيف تجرؤ على أن تقترح أخذ الجاموسة لبيت زوجها الغريب ليشمت فينا".

حين علم أبناؤها بما جرى لأمهم فى منزل جدهم المتوفى ذهبوا لخالهم ، ضربوه بالمجلس العرفى ، وأصروا على ذبح الجاموسة بالقوة ، قسَّموا لحمها حسب الأنصبة بالميزان ، حمل كل وارث نصيبه من لحم الجاموسة وجلدها وعظامها ودمائها ورحل إلى منزله ، شرب "سعيد" و"ثريا" نصيبهما من الدم بالشارع على روح والدهم المتوفى .. ما الذى كان بينهما دون إخواتهما لينطلق الغل من قلبيهما بعد وفاة الأب بساعات؟

ترك لها زوجها إدارة منزله وعمل وأولاده بورشة الخراطة ، ساعدها الطول على أن تكون لينة الكلام ، حين رغب "سعيد" فى أن يأخذ نصيبه بالأرض بجوار الطريق رفضت ، أصرت على أن تأخذ القطعة الأفضل بالأرض لنفسها ، قالت: "لن تنعم بالعيش فى خير الأب حياً وميتاً".

ذهبت لمنزل الوالد فى اليوم الثانى لوفاته ، فكت السرير الذى كان ينام عليه وحيداً بعد وفاة نسائه ، جمعت ملابسه بوسط الشارع وقامت بحرقها ، حاول الناس منعها ، قالت: "لا يجوز عليه إلا الحرق".

استطاعت أن تحرق مشاعر الأبوة أمام الناس ، ما الذى كانت تريد توصيله للجيران بحرق رائحة الأب والعائلة التى حرمتها زيارات المواسم؟ هل كانت ترغب أن تؤكد للجميع أنها بدون أهل؟!

هل أحزنها منع "سعيد" اللحوم والسكر عنها فى المواسم؟ أم أن زوجته التى كانت تغار منها وتعايرها بفقرها كانت وراء الحقد الذى ترعرع بينهم على مر السنين؟

كانت شديدة المراس تناقش الجميع ولا تفعل شيئاً إلا بعد أن تقتنع به ، غالباً ما يكون رأيها مخالفاً لرأى الجميع ، تحاشاها الجميع خوفاً من جبروتها خاصة بعد شجارها مع "أخو" زوجها الملتحى بعد أن سألها أين تذهب كل يوم وتترك المنزل فقالت له: "إياك أن تسألنى مرة أخرى ، سأفعل ما يحلو لى ، ليس لك حكم علىَّ يا مهنى ، ولدت حرة" .

نادى أخُ الزوج على أخيه يسأله فيما تقول زوجته ، لكنه صمت بعد أن اتهمته بأنه ارتكب المعصية معها جبراً فى الليلة الفائتة وتشاجر الأخوان ، ولم يتحدثا مع بعضهما البعض حتى ماتا ، استطاعت أن تنال حريتها رغماً عن أنف أهل زوجها.

فى هذا اليوم قالت أمام الجيران: "كان زوجى غائباً بالورشة ، كنت متعبة طوال النهار ، دخلت الحمام المشترك لأستحم . بعد أن خلعت ملابسى ، سمعت أصوات خارج الحمام ، فتحت الباب ، اعتقدت أن البط والوز نزل من على السطوح ، لمحت أخو الزوج الملتحى يدخل حجرته مختبئاً ، أغلقت الباب لأنتهى من الاستحمام ، سمعت مرة أخرى أصواتا خارج الحمام ، فوجئت بمهنى يدخل الحمام ويقول: "مش قادر استحمل يا ولية حرام عليكى" ، أمسك شعرى المبلول بيديه ، أنزل لباسه ليكشف عن قضيبه المنتصب ، قلت له: "عيب يا خوى عيب ده أنت متحرم علىَّ" ، برك على وسط الطشت ، حاولت أن أمنعه ، كالمجنون أمسك الوابور وقال: "هولع فى نفسى وفيكى إن لم تتركينى" ، حاولت أن أمنعه ، أمسكنى من مؤخرتى ، وضع قضيبه بها وجرحنى ، لولا خوفى من الفضيحة لصرخت ، حاولت تهدئته ، أخذته فى حضنى حتى لا يرتكب الفاحشة ، فأدخل قضيبه فى فرجى دون أن أدرى".

الجميع وقف يستمتع بمشهد معاشرة الأخ لزوجة أخيه ، لكن زوجها استشاط غضباً وقطع يد أخيه ، لولا الجيران لكان حرقه وشرب دمه ، لم يتفوه بعد ذلك "مهنى" بكلمة واحدة عليها ، وظلت عينه منكسرة كلما شاهد طيفها.

قال الجيران والأهل كلما شاهدوها: "من يقدر على هذه المرأة سوى الله" .

"**القتل**"

نمت مشاعر الأُخوة بين جدران هذه الشقة ، ترعرعت أشجار الرمان خلف حوائط حجرات البيت وعاش الإخوة الثلاثة لا يفرقهم إلا النوم ، اشتركوا فى كل شيء اللعب والحب والهدايا ، فهم الظل الباقى على الأرض لأسرة الرجل الصالح.

عشرون سنة ظلت الورود تغطي سماء هذه الشقة ، الأب يعمل بالتدريس ويعود آخر النهار محملاً بالفاكهة ، الأم تعد طوال النهار الطعام ، يعود الأبناء من المدرسة لحجراتهم يتناولون معاً أشهى الأطعمة ، ينتعشون بالنعمة والأمان فى بيت والدهم المكافح.

انطلق الأبناء الثلاثة للحياة بعد أن تخرجوا من الجامعة ، سافر الأخ الكبير وتزوج بالغربة ، خرج الأخ الأصغر يبحث فى المدن الجديدة عن مصدر رزقه ، وتزوج من عاملة فندق بالمدينة الجديدة ، عاش الأخ الأوسط مع الأب والأم شيخوختهما ، عمل مع والده بالتدريس ، وتزوج بالشقة مع أمه بعد أن مات والده.

فقد الأولاد الود ، أصبحت الغربة ثمناً لسيرة العائلة ، نسوا فى غمرة الحياة الاطمئنانَ على الأهل ، بنيت حوائط من المصالح والتنافس حول ذكرياتهم ، تحولت الحنية والحب الذى يملأ قلوبهم إلى ذكريات ، اختفت الضحكة الصافية مع موت الأب ، لم يتبق إلا الأم التى كانت الدليل الوحيد على أنهم مازالوا بشراً.

بعد سنين طويلة عاد الأخ الكبير وأبناؤه الخمسة من الغربة ليعيش مع أخيه وزوجته وأمه بالشقة ، مرت الأيام الأولى بالترحاب والود ، تشاجر الأبناء على مكان النوم ، سال الغل من العيون ، سألتهم الأم: كيف امتلأتم بالغضب؟ أنا لم أقصر أبداً فى إعداد وجبات الطعام ، لم أتأخر عن غسيل ملابسكم الداخلية ، كنا نعيش سبعة أفراد بهذه الشقة ، لماذا ضاقت صدوركم إلى هذا الحد؟ هل نسيتم والدكم الصالح؟

تفننت زوجاتهم فى صنع الحكايات حول عهر بعضهن ، يتزين بالثياب المفتوحة ويتخطرن بصالة الشقة ، يغتاظ الأزواج وينادون عليهم ليدخلوا بعيداً عن أعين الأخ الآخر ، تقف زوجة الأخ العائد من الغربة بملابسها الملونة محلولة الشعر فى صالة المنزل ، تضحك عن آخرها وكأنها تقول لأخو زوجها: "أنت مش متجوز مَرَه ، أنت متجوز فرقع لوز".

كانت زوجة الأخ المدرس التى عاشت وحدها سنيناً بين جدران الشقة ، تدخل الحمام تغنى أغانى الغرام لتفرس زوجة الأخ الكبير التى تدق باب الحمام بغيظ وتقول لها: "كفاية كده".

انفجرت حجرات الشقة عليهم بعد أن ماتت الام محسورة ، تركتهم يتصارعون على الحجرات والهواء الذى يملأ الشقة دون أن يفهموا أن البراح واسع لا حدود لنهايته.

امتلك الابن الأكبر المال بعد الغربة الطويلة ، اشترى منزلاً وشقتين فى نفس الحى ، مع ذلك أصر على شراء الشقة التى تحمل سيرة الأب وتاريخ العائلة ، رفض أخوه عرضه لأنه ظل وزوجته يخدمون الأب والأم طوال السنين الماضية دون مقابل ، بعدها سمع الجيران عن مقتل ثلاثة أشخاص فى مشاجرة على حيازة شقة.

قال "سيد الترزى" وهو يقف على ناصية الشارع يحكى للمارة والجيران: "إن زوجة الأخ الذى عاد من الغربة رفضت فى هذا اليوم فتح باب الحمام إلا بعد الانتهاء من ممارسة حقها مع زوجها ، واستمرت ساعتين تمارس الجنس وتغنى بصوت مسموع فى فُجْر لم يتعوده الناس ، فقام الأخ الأصغر بكسر الباب وقطع رقبتهما بسكينته وعندما رأى أخاه غارقًا فى دمه قتل نفسه ، لم يتحمل استغاثته ودموعه بعد أن ذكَّره برائحة أشجار الرمان التى كانت تفوح من شباك حجرتهما.

نظر المارة والجيران لجدران الشقة وبلكوناتها لم يصدقوا أنها حملت ذكرى أب كان يعمل بالتدريس ، ظل يعلم الناس الحب والتفاهم والود وأطلقوا عليه "الصالح" ، لكنهم لم يصدقوا أن الإخوة كانوا يتصارعون على الذكريات .. الدليل الوحيد الباقى على أنهم بشر.

"العطاء"

دخل عليها ومعه البقرة العرجاء الناشفة التى لا تحلب فقالت فى سخرية: "هى دى اللى طلعت بيها من العزلة .. ده اللى ربنا قدرهم عليها وأعطوه لك؟"

صرخ فيها: "متفتحيش بقك حتى لا أعيدها ، أنا مش هغلب فى أكلك إنت والواد ، وتوفير كل شهر حق كيلتين ذرة أو قمح".

بعد سنة واحدة من طرده من منزل العيلة ، كان أخوه القاسى والذى تسبب فى عزلته عن إخواته لا يجد الطعام هو وأولاده ، كان يشترى الملابس ويلقيها لأبناء أخيه من فوق سطوح المنزل ليكسيهم ، ويملأ حجره بالبلح الأمهات والعيش ويمر عليهم كل يوم ليلقى بحمولته أمامهم دون علم زوجته.

كان يندهش لأن أخاه وزوجته وأولاده لا يفعلون شيئاً طوال النهار ، ويقول: "لو أنهم عملوا معى أو حتى مع غيرى وكدوا فى الحياة ، لن يحتاجوا المساعدة ، سوف يكسبون ويبتهجون بدلاً من العراك".

كان أخوه وأبناؤه يقومون من النوم يسرقون من جيرانهم بعض الطعام ، أو يرمون بلاهم على أحد المارة ، فيقول: "يجب أن أكفيهم حتى لا يجوعوا ، كان يستمتع بالهواء وهو عائد كل يوم بالخيرات التى يقسمها بينه وبينهم.

حين أخذ أخوه المملوء قلبه بالغل الأرض كلها لنفسه ، قال: "أشبع بها" ، لم يفقد ثقته فى ربه ، آمن بأنه سيكسب قوت يومه ويقسمه على زوجته وابنه وأبناء أخيه .

وقع المنزل المملوك لهم على رأس أخيه الأصغر وزوجته وأبنائه وماتوا ، قال أخوة الكبير قبل أن يدفنوه: لن يرثه سواى" ، فقال: "خذ كل شئ ، لكن يجب أن ندفنه" ، فقال أخوه الكبير: "لن تدخل بيته بقدمك فأنت الذى قتلته بعزلتك عنا" ، كانوا ينسبون له كل فشلهم رغم أنه لم يهتم إلا بالنجاح.

سبعون عاماً مرت متواصلة من التفانى والإخلاص ولم نسمع صوته ، كان يقدم للجميع الخبز والبرتقال والعجوة ، لم نحس أبداً بمعروفه ، لم يشعرنا بأنه يفعل أكثر مما ينبغى ، كان يضحك عن

آخره من القلب ، والصفاء يملأ وجهه المشع نوراً ، خفف عنا قسوة الأيام وآلام المرض حين يقول: "اعملوا تجدوا ولن تحزنوا أبداً".

كيف فعلها واستحق أن يخلق فينا الرضا والنوم مرتاحي البال ، لم يتمرد أو يحزن ، هل مرت حياته كلها دون مصائب رغم الأحداث التى هزت أسرته؟

من أين اكتسب كل هذه القوة ليبهرنا ؟

عند موته ، لم يتذكر أحد ما فعله ، وقالت زوجته: "ماذا كسبتَ بعد أن أعطيت للجميع كل شئ ولم تحصل علي شي؟" قال: "كسبت نفسى".

"العزلة"

ركب "إبراهيم بليلة" جحشته الوحيدة التى خرج بها من بيت العيلة الكبير بعد الفجر ، ذهب لقراريطه الأربعة التى أخذها من إخواته وأولاد عمه الذين بلغوا العشرين وكانوا يمتلكون أربع بقرات وستة عجول وثمانين قيراطاً.

أحس"إبراهيم بليلة" بعد العزلة بقبضة فى قلبه كادت أن تأخذ روحه ، نزل من على الجحشة وربطها بشجرة الجميز ، وتجول بأرضه التى حددوها ، وقال لنفسه: "كنا نمتلك بالأمس ثمانين قيراطاً وعشرة أبقار وعجولاً ، هل يعقل خلال مسافة الليل أن تسرق هذه المساحة ليحددوا إقامتى ، كيف سأتحرك وأتنفس بعد اليوم؟"

قال لزوجته قبل خروجه: "كيف سأخرج من البيت وأمر وسط الناس بعد أن كنت بالأمس أمتلك العزوة والأهل؟"

هل تحديد الأرض وفصل البيت يجعلنا نحس بوحشة تكاد تقتلنا كل لحظة .. ماذا تسمى تلك المشاعر؟ ولماذا تعطى جماعية الحياة كل هذه القوة؟

لم يسمع كلام زوجته بضرورة الإفطار ، انطلق نحو أرضه الجديدة راكباً حمارته ، ضاق صدره بالهواء عندما شاهد الأرض المحدودة ، عاد سريعاً للبيت الذى يعيش فيه مع إخوته ، قال لزوجته: "حضرى الفطار يا أم حسن" ، وحين جاءت بطبق الفول والجبن وجدته ميتًا.

كان يمر على رمانة يأخذ منها أقراص الطعمية ورغيف العيش البلدى ساحباً المواشى ويلتحم بالفضاء ، يغمض عينيه لتتراقص العصافير والعجول وينتعش الهواء ، كانت الكائنات المحيطة به تتجمع وتغنى مع الهواء والرياح لتشكر الرب على إبداع الحياة المنسجمة ، كل طير وله رزق ، كل شجرة ولها جذور وخلقت للظل أو لإطعامنا ثمارها ، كل حيوان سعيد بإنتاجه من الألبان واللحوم ، و"إبراهيم بليلة" يدخل ضمن هذا البراح ويتحول فيه ، ينسجم معه ، دون أن يدرى أن أوان العزلة قد حان ، وأن عليه أن ينفصل.

قال الناس: "خمسين عاماً عاش بهذه البلدة يسمع الحكايات عن الأهل والأبطال والأنذال والزراعة والأمل ولم يطالب بشيء سوى الغناء".

منذ ميلاده عاش ملتحماً مع البشر المحيطين به ، رغم أن أجداده وآباءه قسموا البيت إلا أن البيت كان يمتلأ براحاً لآن الجميع كان يُغْلَق عليهم بابٌ واحد.

قال ابنه: لن ندفنه مع جدى فى المقبرة المشتركة التى قام الأعمام بتقسيمها ، كان التربى حاضراً جلسة العزلة فقال: "بعد الموت التراب بيلم".

أكد الابن: لن يدفن معكم حتى لا تنزل جثة أحدكم عليه وتحرق قلبه وهو ميت" ، صرخت زوجته وقالت: "لم يتحمل قلبه الطاهر أن يرى الأرض مقسومة فمات محسوراً ، لماذا قلتم له منذ الولادة إنكم أهله وقلبكم واحد ، لماذا وغررتم به " ، وصرخت: "يا سبعى رحتَ فين يا خوى ، ارجع يا غالى ، ارجع هنعيد القسمة واللقمة والهدمة .. عود يا إبراهيم وسوف نعيد كل شئ".

طارت جثة الميت من المنزل المقسم لعشرين حجرة رافضة العودة مرة أخرى لبشر لم يهتموا إلا بتقسيم مساحة البراح الذى عاش فيه ، انطلقت جثته لتسكن وحيدة بمقبرة ضيقة اشتراها ابنه يوم موته ، أحكموا الغلق جيداً على الجثة ، لكن روحه غادرتهم ، وعادت لتطير وسط البراح.

"البراح"

قالت أمى: "يا خوى أنت أخوهم الكبير .. العين اللى حرساهم .. لا تقسُ عليهم" ، صرخ فيها وأمسك الشوكة وفقأ عينه وقال: "لن تكون هناك عين لتراهم مرة أخرى ، الهواء بالمنزل متحرم علىَّ ، اتركوني لحال سبيلي".

بكت أختى فأمسك شعرها وجرها إلى الشارع وقال: "ابعدوا عنى ، هل كتبتم ببطاقتى؟ كيف تطلبون منى العيش فى جماعة كل واحد فيها يحلم لنفسه؟ أريد أن أكون وحدى".

حاولت أمى تهدئته فقالت: " طوال العمر الماضى كنت كالجمل ، خمسين عاماً تعيش لنا ، اخترتَ أن تعطينا ؟"

أمسك السكين وقطع يديه وقال: "لن تكون هناك يد لتعطيكم" ، سار الدم وسط جمعنا على أرضية الحجرة ، حاولنا أن نداوى جراحه النازفة ، لكن الأوان قد فات ، فارقنا دون أن نفهم لماذا يرغب فى هجرنا؟!

كنا نغيب سنيناً وشهوراً ونعود لنجده يقف صامداً مواجهاً وحدتنا ، وينادى علينا لنعود ونلتحم بروحه.

حلمنا باستكمال العمر الباقى فى ظله ، من يأخذ الأولاد والزوجة والمنزل والأرض ويعيده إلينا؟ كيف تركناه يفعلها ويغادرنا للأبد؟ كيف فعلها القاسى؟!

في هذا اليوم أظهرت السماء كآبة الصيف وأنزلت حرارتها لتحرق قلوبنا ، قال: "الجميع يرغب أن يأخذ ، من يكفيكم؟ الجميع يحتاج راحة البال ، أخذتم قلبى الريان ، هل يحس أحد بفقدى؟ أنتم ترغبون بقتلى ، لن أستمر".

فى المشهد الأخير قال باكيًا: "لا أريد أن أرى وجهكم للأبد ، سوف ابنى سوراً وأدفن نفسى فيه ، لن ترونى حتى بأحلامكم ، لن يجرؤ أحد على تذكرى أو مناداتى بأخى ، لن أقول لأحد فيكم بعد ذلك: "أين ذهب ؟ ضاع عمرى ، أريد أن أتحرك بدون عيونكم ، أريد أن أعيش تحت سقف آخر وسماء مختلفة ، أحتاج هواء بديلاً لأتنفسه".

فى غفلة منا غاب عنا ، كنا نتمنى أن يأتى بأحلامنا لكنه أصر على حرق قلبه حتى إذا تذكرناه تألمنا دون إرادتنا.

"العودة"

القدر وحده جعلنى أتنازل عن حقى لأتركهم دون رجعة ، عشت بعدها بالشارع ثلاثة شهور ، أنام بالأزقة والجوامع ، لكنى أبدًا لم أتمني الرجوع.

منذ شهر وبعد غياب طويل اشتقت إليهم ، خفت أن أموت بعيدًا عنهم ولا يعرفنى أحد فرجعت مشتاقاً لشجارهم وقسوتهم ، لم أصدق ما آلت إليه القرية ، العمارات المرتفعة والمحلات المضيئة المنتشرة بالحوارى التى كانت تظلل براءتنا كادت أن تفقدنى الهوية ، تذكرت الحقول التى تحولت لمحلات ومقاهٍ كثيرة ، قلت لـ صديقي : أين حقل الشيخ "شحاتة" وساقية "زوزو" العبيط وعشة "سيدة العايقة" و "عنبة سعد داود"؟

صدمني توك توك بعجلاته فابتعدتُ من طريقه ، كانت الشمس قد قاربت على الغروب والحوارى بين المنازل تدل على أن عالم الزراعة انتهى ، وبدأ عصر الضجيج ، أحسست أنى غريب ، هذه الحوارى والمحلات التي لم أتصورها فى غربتى .

هل كنت أحلم حين تمنيت العودة لإخواتى مرة أخرى ..؟ أم أن الحوارى الجديدة أفقدتنى التمييز ..؟ هل كان هنا منزل أعيش فيه معهم ؟ أم أننى غريب نزل فى بلاد بعيدة؟ قال "إبراهيم" صديقي: "لا تندهش سوف نجد آثار عائلتك".

ذكَّرته بالقصص القديمة بين الإخوة والأهل وهم يقتسمون تركتهم ، تبادر لذهنى قصة "على المنجد" وهو يشق بطن أخيه بالمقص بعد صراعهم على الشقة الوحيدة التى تركها والدهم ، حين افتعل المشاجرة أمام الساقية القديمة التى كانت مأوى للجن والعفاريت ، جاءت لمخيلتى حكاية "بنت عمران" ، التى أصرت على الموت تحت سقف البيت الذي عاشت فيها مع أبيها وجدها وارتوت من ينابيع الحب ، تركت بيت زوجها وأولادها لتموت أسيرة بذكرياتها ، وفَّر لها الزوجُ المالَ والحب والأولاد ، لكنها قالت حين غادرت منزل زوجها: "أن المواسم التى حرمنى منها الإخوة أهم عندى من كل مال الدنيا ، سوف أعود لاستعيد رائحة العيلة ، ما الذى كانوا يبحثون عنه حين عادوا للماضى وضحوا بحاضرهم وأبنائهم ومستقبلهم؟"

قال جارى ساخراً منى: "الدنيا لا ترحم أحداً ولا يُنزَع الماضى من قلوبنا ، لا تفكر كثيراً فالذكريات تعود كوحش كاسر" وتقول لنا: "أين ستذهبون منى؟ لا يهم تلك الحكايات .. فقد عدتَ لتعيد الماضى الجاحد لجحوره".

نظر لعينى وقال بشفقة: "لا يهمك هذا الزحام ، ألا تتذكر "عبد الفتاح" المبيض صديقك الذى مات بمنزلكم بعد أن خبط رأسه عمود المدخل ، وفقد السمع بعد تركيبه سماعة لأذنه ولم يعد يفهم حواراتنا ..؟ أتتذكر "أبوك حين ذهب للدكتور وقال له مش هينفع تانى ومات بعد يومين ، واحتضن زوجته وأولاده وتعهد أمام الجميع بإعالتهم؟"

ذكَّرنى بحنفيات المياه فى الأيام الأخيرة قبل طردى من منزل العيلة ، وسألنى هل كانت تنز بالديدان كما قلت لإخوتك المجتمعين: "لن أترك المنزل حتى تعود المياه نظيفة؟"

يومها تركوك وذهبوا لأعمامك وقالوا: "أخونا اتجنن سوف يدفن نفسه بمنزل آيل للسقوط ، وحاول الأهل أن يخرجوك من المنزل ليهدموه ويقيموا بدلاً منه العمارة الكبيرة التى تدر دخلاً وفيراً عليهم ، لكنك لم تفهم العلاقة بين الدخل الشهرى ورائحة أمك وأبيك وجدك فهجروك" ، وقال الأهل دون رحمة: "اهدموه فوق رأسه ، لا يهم أن يموت أو يعجز".

نظرت إليه وقلت: "لماذا تُذكرنى بكل هذه الحكايات؟"

حين وصلنا أمام عمارتنا الكبيرة ، نادى على أخى وأبنائه الذين فتحوا المحلات بالدور الأراضى ، لم يعرفونى وقالوا لـ "إبراهيم" : "أخونا مات بالمنزل القديم ودفنَّا جثته .. لن يرث المنزل سوانا ، حاولت أن أحضن أخى الذى وقف ابنه مشفقاً علىّ ، فقال له: "لا تلمسه فإن رائحته نتنة" ، قالت أختى التى نظرت علينا من الدور الثانى: "من أنت؟ نحن لا نعرفك أخونا مات تحت الأنقاض " ، قلت لها: " يا عيشة ، مازالت رائحتك الطيبة بأنفى وأنت تستحمين بحوض الترنبة ، ألقت بجردل ماء قذر على رأسى لتذكيرها بملابسها الداخلية البيضاء أمام المارة".

ذكَّرتُهم بالحوارى التى ضمت قلوبنا الصغيرة ، ضحكوا ساخرين فكيف يمكن تذكر قصص نسيها الجميع .

قلت: "لا أحتاج نصيبى مقابل الاعتراف بذكرياتى" ، قالوا:"عد من حيث جئت فليس لنا إخوة ".

. انزويت بعيداً وسألت نفسى: "هذه القصص من صنع خيالى .. هل كان لى إخوة أو أهل؟ هل كنت أعيش هنا؟ ولكن كيف تعرَّف علىّ جارُنا إبراهيم".

"الخوف"

حَلُمنا بامتلاك العالم وتجولنا بالقرى والمدن دون إعاقة الأماكن والأزمنة ، التحمنا بدفء البراح ورائحة العرق المشتركة أسكرتنا وهى تخرج من أجسادنا ونحن نيام فوق مصطبة البيت.

كانت الحياة رشيقة ، الكل يبنى وينتعش بخروج الصبح ، تلتقى الطرق الكثيرة المختلفة التى نجرى فيها بطريق واحد ، كنا نعلم أن مقابلة النور الرائع كل يوم تغير شكل الدنيا.

سنون طويلة حلمنا باستكمال بناء المنزل الكبير الذى يجمعنا ونتمتع فيه بالحب لتلتف الحدائق حوله وينعم الأهل والجيران بعطر رحيقه.

كفل وجودنا المشترك هزيمة الشر ، كان يخاف منا ويهاب وجوهنا ، لم يفرق الناس بيننا كإخوة ، كانوا ينادون علينا: "يا أبناء سيد" ، لكن الرياح جاءت فمحت اسم الأب بدعوى القسمة والنصيب!

أدهشت حياتُنا الجميعَ وتساءلوا: "كيف لإخوة بعد أن مات أبوهم أن يعيشوا معاً دون أن يخطئوا الاتجاه ، كيف تمكنوا من تفهم بعضهم البعض وغفروا الخطايا وتضامنوا ضد الشر؟ مَن الذي أعطى لحياتهم الجماعية طعم البهجة؟"

كان جدى يقول: "البركة فى اللمة ، اللقمة الهنية تكفى مِيه" ، لم تقاوم هذه المعانى الرياح العاتية حين جاءت وفصلت كل واحد منا عن الآخر ، وقالت فى تحدٍ: "تفرقوا قبل أن تنهاروا ، من يستطيع أن يولد ويموت قبل أن يشعر بمرارة الحرمان؟!"

اعتقدنا حين خُضنا معارك أسهمت في صنع مصيرنا وبناء أواصر جديدة للمحبة أننا محصنون من الفُرقة.

لكنهم حرمونا من الفضاءالواسع بعد أن أزالوا المنزل والأرض وقسموا الهواء والماء ، وأعلنت الرياح فرقتنا.

بدأ الصراع على كل شئ وتم الغدر بكل ما بيننا.

انتشرت الخسة وبدأنا نردد: "دى حاجتى محدش يلمسها" ، وشعرنا بمعان جديدة ، انطلق الغل حين مرت أعيننا على أشياءَ كانت ملكنا جميعاً ، بَنَتْ جدراناً بيننا لتفصلنا عن روحنا.

لماذا يجب أن يقسم الناس الهواء والماء والحجرات والمواشى والأراضى؟ أهى سنة الحياة؟ لماذا لم نصل حتى اليوم لطريقة تمنعنا من تمزيق أنفسنا قبل الموت؟ كنا نردد دون فهم حكايات الفشل والنتائج المزرية لتبرير فرقتنا.

قال أخى الأكبر: "ليس هناك مفر" ، رد أخى الأصغر: "لن تقسموا أرواحنا" ، تذكرت حكايات جدى وصراعاته مع إخواته ، ومشاجرات أبى وعمى حول الأرض والمواشى ، فلق حجر بالعركة رأسى ، ألقته زوجة أخى فسألتهم: "هل نحن أخوة؟"

أتذكر يوم حرق حرق الزريبة ونحن بداخلها نلعب كإخوة نحلم بالانسجام مع الكون ، فوجئنا بالملاك الطيب ونحن نبكى يحمينا من النار ، قال: "كونوا كقلب رجل واحد ، لن يفرقكم جنس أو جن" ، نظرنا لبعضنا البعض ، تعاهدنا على الحياة وصرخنا: "أنقذنا".

تفجر الانطلاق والعمل والحب ، كنا نقول لأنفسنا: "نحن إخوة نستحق النجاة ".

ما الذى أضعفنا وجعلنا بقايا لبشر يأملون فقط ألا تتغير الدنيا ، لماذا غرقت سفينتا وسط المياه ولم نعثر عليها مرة أخرى.

قال جارنا: "كان يركب حمارته أمام أخيه الأصغر ومروا وسط حقوق الفلاحين المزروعة بالذرة ، وخلعوا كيزان الذرة دون أن يراهم أحد ، رغم أن الناس ملأت الحقول والطرقات ، لكن أحداً لم يتمكن من ملاحقة خفتهم".

اندهش الجميع من الحكاية وقالوا: "يجب أن يدفعوا الثمن ".

كانت الريح تأتى من اليسار ، ويعمى أعينَنا الترابُ ونحاول أن نأخذ مكاناً مختلفاً ، تزداد الريح فنختبئ منها ، ننظر لبعضنا البعض ونتساءل: "هل نحن إخوة؟" يتغير اتجاهها ونضيع فى الطرقات ، تأخذنا إلى طرق كثيرة لا نعرف أولها من آخرها ويفقد القلب البوصلة.

ألقت الزوابع بركية النار بعرض الطريق ، حاولنا إطفاءها ، امتدت لتشتعل بحقول القمح ، كانت النار أقوى من المياه ، لم يهتم أحد من الجيران بمساعدتنا فى إطفاءها.

أمعنا النظر فى وجوه بعضنا وتساءلنا: "لماذا أخفينا على بعضنا الأسرار وأنكرنا السرقة؟"

أكلت النار خزين الذرة والقمح وحرقت الزريبة ، أفرغت عرباتُ المطافئ كل المياه دون جدوى ، غيرت الطريق دون إرادتنا وحرمتنا حتي من الذكرى .

مرت سحابة كئيبة ، أفزعتنا من نومنا ، رفعنا وجوهنا ناحيتها ، أعمت عيوننا وغيبتنا رغم يقظتنا.

أمطرت على رؤوسنا بقايا الأطعمة العفنة التى جمعتها من مقالب القمامة بالبلدان المختلفة ، الركام القذر لم يعقه سقف ، امتلأ البيت عن آخره ببقايا الملابس الممزقة ، وقفنا عاجزين عن الخروج.

لم يمهلنا التفكير فى الهروب وقذف بقلوبنا سم الحيات ، طلبنا النجاة ، حكينا الحلم للجميع ، لم يهتم أحد ، حاولنا الخروج للشارع والناس مندهشون ، فكيف لأسرة ظلت طوال العمر تحلم بالبهجة أن تغرق فى الخوف؟

حاولنا تنظيف حجرات البيت ، ألقت السماء بكميات مضاعفة من الغل لتنهار قوتنا ، ماذا نفعل؟ كيف للقوة التى اكتسبناها منذ النجاة من الحريق أن تضيع مرة واحدة؟ كيف ننظف الدنيا وتبهج ضحكتنا الجيران .. ماذا حدث لعزيمتنا وإرادتنا ، أين ذهب عطر الحدائق؟

تفجرت جذورنا واختفى أمل جمع الشمل وحماية السيرة ، تلوث الفضاء ، أخذ كل واحد فينا دوراً فى الهدم ، وقف الجميع يتفرج على تحلل جثثنا وهى تخرج الروائح الكريهة ، طاردنا الجن فخافت نساؤنا واختبأن خلف حواصل الذرة ينشدن الخلاص.

نمت بذور الغضب وترعرعت لطرد المشاعر البريئة والود ، أطلقت العيون والألسنة سهام الشر ، تناطح الجميع فى مشهد استمر لمدة عشر ساعات متواصلة ، تذكرنا فيها الذكريات التى لوثت تاريخنا فقط وكانت في وقت ما مدعاة للفخر.

أفقدنا حلم السماء ونسينا وجه الملاك الذى نجانا من الحريق ، وضاع حلم البيت الكبير المملوء غناء.

انهارت السدود والحواجز ، حاول الناس أن يلملموا المتبقى منا .. هل تبقى شئ يستحق الحفاظ عليه؟ من عاونهم لإزالة الحلم من جذوره؟

أى عقل يمكن أن يستوعب أن المنزل الذى ينتج أجمل الروائح ليعطر الأهل والجيران ينهار فى أقل من عشر ساعات؟ هل خلعنا قلوبنا أم رويناها بماء الشر؟ ألقى الماضى علينا بالغدر فأصبحنا عاجزين عن مواجهة انفسنا.

أصبح توطيد الحدود بيننا هى كل رغبتا .

تناولنا الفؤوس والعصى والسكاكين واجتمعنا حول الذكريات ، حشدنا قوتنا ونالنا منها ، لم يبق أثر لها ، انهار البيت الذى كان مثل الجبل.

توقفت العركة حين آمنا بحتمية الانهيار.

ظلت العيون مليئة بالطمع والظلم الذى لازمنا حتى الموت ليعيد أبناؤنا تقسيم الهواء والبراح الذى ظلل علينا وحمانا دون أن يفهم أحد حكمة القيود.

قال الناس فى النهاية: "استخدموا بالعركة كل الوسائل لمحو سيرة العائلة" ، أعلن المنادى أنه لا أمل فى إعادة المياه لمجاريها والزراعة لأراضيها ، فلم يتبقَ لهم في النهاية سوى الغدر.

"الذكرى"

فى براحها المفقود شاءت الأقدار أن ابنى بيوتاً من النورس على قلبى ، تعود اليمام أن يقف على ضفافى مبتسماً يناجى ربه ويقول: "يا عائدين للغار لا تنسوا تغريدى فى الصباح".

كنت أقف على ناصية الشارع وأملأ جيوبى بالمانجو الصابحة التى أسرقها من أشجار "حمادة هلال" ، آكلها فى فخر وأتحسس رائحتها بكل قضمة ، لن أنسى توسلات أمى وهى تنادى علىَّ وتقول: "بالله عليك لا تشق بطن الحياة ، اتركها تسير كما هى ، لا تفعل الفاحشة اتركها بريئة شفافة ، لا تمسها بشرَّك أو كذبك أو جبروت غدرك".

فى البراح ابتدعنا كل شئ ، كنا نطير وراء الطائرات الورقية فى السماء ونغزو الشوارع وأسطح المنازل الأخرى ، حين تقع طائرات العدو علينا ، نأخذها فى صمت ونخبئها فى أعيننا حتى يمر المجرمون ، بعدها نخرجها من الخُن البعيد في أعماق أفئدتنا ، نطير بها كأنها طائرتنا التى صنعها أجدادنا ، كانت الحكايات تطير معها حول قدرة أطفال حارتنا على خطف الكحل من العين.

فى البلاد البعيدة سارت الدنيا كما شئنا ، لم يجبرونا على حمل الهموم ، كانوا كلما نظروا لعيوننا وجدوا قلوبنا صافية ، يملأون الشوارع بالخيوط والألوان والطين الأسوانى ، يضعونها وسط مجلسنا ويقولون: "ابنوا بيوتاً أخرى ولا تنسوا الحدائق ، املأوا قلوبكم بالحب والموج والنضارة ورائحة الياسمين".

شاهدنا الأبقار ترعى فى مراعٍ واسعة بطول البحر وعرض السماء ، كانت المساحات الشاسعة ملكنا ، وتمتلئ بأشجار الفاكهة ورائحة زهور البرتقال التى تفوح على بيوت النجوع المحيطة وتشفى الجميع.

اليوم أفتقد تلك المساحات التى كلما نظرت إليها تزداد وتدخل بقلبى لتزيل شوائبه من الرصاص المكتوم بالعين.

كنت أنام بالشارع أشرب القهوة من الملائكة على شاطئ الترعة ، ثم أعود للبيت متخفياً فى هواء الربيع الدافئ ، لم يكن أحد يلمح غيابى أو حضورى.

فى بلادى البعيدة كانت هناك قصص كثيرة وحكايات عجيبة لكننى عدت من هناك فاقد الذاكرة.

أيُّ ضغوطٍ وأقنعةٍ دمرتْ روحي وجعلتها تخونني لأنساهم جميعاً ويمر الباقى من العمر دون تذكر ملامحهم ورائحة أشجار الشوارع ولو مرة واحدة.

"القوة"

عاشَرَنا كرجل مستقيم لم يجِد أبدًا عن الطريق ، أدهشنا صبره وتحمله الذى لازمَّه العمر الطويل ، مشى كل هذه الحوارى والشوارع ودار بالمدن والقرى ورفع الأحمال فوق ظهره دون أن ينظر خلفه أبداً.

بشرتنا عيونه المتلألئة بالقوة التي أعانتنا كثيراً على المرور سالمين.

كنا ننظر لقلبه فنعرف الطريق الصحيح ونعتذر عن أخطائنا ونستمر ، كان ينزوى بعيداً ويقول: "ليست نهاية الكون .. الرحلة طويلة ما دام القلب ينبض ، أجهدنا كثيراً ليذيب الحب فى عروقنا".

قال أصدقاؤه فى العمل: "لم يتأخر يوماً ولم يستعص عليه فَهْمُ أية صورة أو حكاية" ، أكد جيرانه أن استقامته ساهمت فَى توبة "سيدة الغانية" ففتحت محل بقالة لتكسب قوتها من عملها الشريف.

هاجر "إبراهيم سكسك" تاجر المخدرات وزوجته المعاصى حين نظروا فى وجهه فمكث بالجامع العمر الباقى وتفرغت زوجته للدعوة للاستقامة والرضا.

قالت زوجته: "لم يسبنى أبداً ولم يرفع صوته ، كان يساعدنى فى غسيل الملابس وتنظيف المطبخ".

فى هذا اليوم الذى شاهده أهل الحى فى آخر الممر يتأبط يديها أحسوا بالخديعة.

نظر لعيون ابنه ووجهه يمتلئ حباً وقال: "نعم أنا أبوك المستقيم وهذه حبيبتى".

"الوداع"

أطلقْ الرصاصةَ الأخيرةَ ولا تجعلني أدخل هذه الحجرات ، امنعنى بالقوة حتى لا أدمر المتبقى منى .. اقتلنى لو احتاج الأمر كى أظل حتى النهاية الصديق الحنون.

لا تخشَ جرحى فأنا أحتاج لسيفك الغدَّار ليطهرني.

صدَّقنى سوف أموت سعيداً لأن بقايا إحساسى سترفرف من جديد وتنبت الزهور التى حلمنا بها معاً .. لا يهم أن تستنشقها وحدك .. لا يهم أن تحرمنى منها .. فأنا أشتاق للون الورد الاحمر كأخر مشهد بيننا.

لا تأخذك رحمةٌ حين استنجد بك أو تدمع عينى .. لا يهمك سردى لحواديت الماضى والطرق الكثيرة التى مشيناها معاً.

لا تلُمْ نفسك حين تنسحب روحى بطيئةً من جسدى وهى تودع حجرات البيت الواسع وثمارَ البطاطا والتوت.

أطلقْ رصاصتك الأخيرةَ على العصافير واليمام الذى سيأتى يوم رحيلى ويغنى على جثتى ، ارمِ سمومَك عليه ليغادرني دون وداع.

لا تُخفِ بندقيتك عن أعين الجيران وأنا ملقى بدمى ، هَدَّدهم جميعاً بالقتل إنْ تفوه فمهم بكلمة ودودة.

ليس من حقى ذكرى طيبة .. ولا نسمة هواء عليلة ، ولا لمسة حنية ، فأنت الذى أعطيت كل شيء .. احرمنى الحياة وأطلقْ رصاصتك الأخيرة .

مَن أكون حتى أتنفس من غير إرادتك؟ أرجوك سامحني فأنا الوحيد الذى أعرف فضلك ، فأنت المنزه فى عُلاك ، أعطيتني الكثير ولم أذكر جميلك أبداً.

أستحقُ القتلَ وتستحق النعيمَ ، امش بعيداً عنى ولا تتذكر نكرانى فأنا البطل المزيف وأنت الإله المكَتمل.

ارجوك ،أطلقْ رصاصَتَك الأخيرةَ وحَرِّرْنى.

الوراق

٢٠٠٩ – ٢٠١٠

هل كانوا بشراً وهم يحملون كل هذا القدر من الحقد بقلوبهم؟

